

الجامع محمد ؟

رواية مصرية ادبية غرامية جنائية ذات حوادث مؤثرة

تأليف

على مصطفى محمد

﴿ جميع الحقوق محفوظة ﴾



تطلب من مطبعة التقدم التجارية ومكتبتها

بدرب العنبة عطفا عبد القادر نمرة ٥ شارع محمد علي بمصر

لصاحبها فهمي يوسف

ومن فرعها بشارع الصنادقية بجوار الازهر الشريف بمصر

مطبعة التقدم التجارية

مقدمة

هذه قصة جديدة في نوعها أقدمها إلى القراء الأعزاء ، وأملى منهم أن يغفروا لي هفواتي إن رموني بالخطأ أما الكامل سوى وجه الباري جل وعلا .
وان كنت قد وصفت طبقة من طبقات (الأُولياء) بما جاء فيها فليس هذا معناه أن ذلك يتناولهم جميعا : ففي كل طائفة حالها ومرها وفي كل بلد همها وسرورها . وليس ببعيد أن يسطر الكاتب قصته (الواقعية) ثم يقع نظره على خبر مماثل حوادثها . وهذا هو مافي الواقع فاني قرأت في قصاصة من جريدة سيارة نسيت اسمها ، خبرا مشابها لناحية من حوادثها على التقريب ، غير أنه يقع في بلد أجنبية : وهو أن راهبا في أحد أديرة جبال الألب حوكم أمام محاكم الجنايات لأنه كان يفرض بعض الراهبات الحديثات . وليس هذا فحسب ، بل العالم كله يغص بأشياء هذه الحوادث : من المسلمين إلى المسيحيين إلى اليهود وغير ذلك وقلوب من على سطح البسيطة مليئة بالوفاء والغدر ، والخير والشر ، والإيمان والكفر ، والحب والمقت ، والصدق والكذب ، والاخلاص والرياء ، إلى ما هنالك من مختلف السجایا والصفات .
ولا عجب إذن أن يتقدم كاتب بقصة محدثة واقعية مشحونة بمختلف المناظر كهذه ، فالقصة الواقعية لدى — مهما قلت قيمتها — أحسن وقعاً على النفوس وأشد تأثيراً من القصة الخيالية .

وفق الله (الأُدباء) وخيرة الكتاب لرفع قدر الأدب القصصي ، وأشركني سبحانه وتعالى في جزء من تلك المهمة على أقدم شئنا مسليا إن لم يكن نافعا بقصص تلك ، عليها تدخل عليكم شئنا من الضرر .
وكلمة أخيرة أحب أن أختتم بها وهي أن وقعت لديكم موقع الحتارة فكتابها أحقر من أن يلتفت إليه ، والله تعالى هو الموفق إلى سواء السبيل .
المؤلف : علي مصطفى محمد

الشيخ محمد بن عبد الله بن محمد

اجمعتني الصدف ذات يوم برفيق قديم من عهد الدراسة بعد فرقة
خمس أعوام ، فألفيت حاله حالا ، إذ نزل به ميزان الحياة الى الحضيض
وسكن إلي يشرح لي في مجالس المسامرة ما اعتراه : كيف هادنته الآلام
وسايره الشقاء طيلة مدة غيابه عني ، فتأثرت نفسي لمصابه ، ونظرت
إليه فوجدت الدمع يتفرق من عينيه ، ونشيجه يصل الى آذاني خافتا
كأنه صادر من أوتار شدها محتاج البؤس والتماسة ، فأطرقت حزنا ، ثم
رفعت إليه بصرى فألفيت وجهه مكفهرأ وأوداجه متقلصة ، وسمعت صوته
يتكسر خافتا ، يلعن العالم وما فيه ، وصار في حال لم أعهد فيه من قبل .
قال مذل لسانه يقول :

ما أقل الناس في دنياي	جميعهم واحد وواحد ثم سمعنا
أناس لا فوائد فيهم	أجتنبها للنفس تقما أو سندا
ضاقت البسيطة على رحبها	فلاولن تخفف عني غادة خردا
ما أحلى تزاوري الى الحد	على ضيقه يسعني مستضيها فاعدا
أيانا شد الدنيا الدنية وطالب	سعادتها : لن تنالك غير الردى
رويدك من بريقها وزخرفها	مهلا حذار لك منها العدا
فناء لك أبتغيه من الجليل	هلا كالك وثراقسا كنيتك أبدا

وأخذت أخفف عنه جهد ما ملكت نفسي ، ورويدا رويدا كان
لا يعرف البؤس أمانى . فكان يضحك ، ولكن عن جروح لا تلتئم سهلا
وعلى ذلك أخذت أسلى فؤاده بشتى الأقاصيص والشذرات المبهجة .
وألفت عليه ضمن مفا كهاتى له هذا الكتاب ، وكنت قد اختلست
حوادثه من أخبار الصحف السيارة وقتئذ ، وأدجمتها في بعض حكاية
شاهدتها بنفسى ، فابتهج له وشغلته الحديث به زمنا عن مصائبه ، وأعجب

به جداً ، واقترح على اخراجہ للملا ت تحت عنوان (الحاج عمر) فضحكت
له قائلاً : لیکن ذلك . و كنت یقولی هذا لأقصد نشره قط .
ولم یدر الحول دورته حتی قبض الله روح ذلك المسکین الیه ، فذهب
ورفسی ملیئة بالأسى والحزن علی ما عاناه إبان خوضه غمار الحیاة
المضطربة العباب .
وأزف میعاد ذکراه ، ولم أجده ما أسجل أیامی به مع هذا الصدیق
الراحل .

وفي لحظة من لحظات خلود النفس الی التفکیر عاودنی الالهام بکتابی
هذا فعولت کتابته بأسلوب قصصی ، حتی أرضی روح ذلك الصدیق فی
مجسمها الأبدی ، وترکت الاسم (لقصتی هذه) كما اختاره لها .
وان كنت أقدمها الیوم ، فلا أقدمها إلا لروحه الطاهرة النقية ،
التي خرجت من العالم دون أن تعترف أنما ، وان أهديتها فلا أهديها
إلا الی جثمانه الفانی .

ولست أبغی من وراء ذلك سوى ارضاء روحه فی مثواها ، علما
تصفیح عنی ان كنت لها یوما أسأت . . .

المؤلف
أعطر الله علیه رحمة ، وهو أرحم الراحمین
علی مصطفى محمد



الفصل الاول

النشور

كانت فرقة الموسيقى تعزف نشيدا حديثا حلو الوقع على النفوس ، مما جعل كل الحضور يرهفون غرب آذانهم ينتصتون السمع ، أو بالحري قل أنهم أقدموا على اقتناص الفرصة ليظهروا أنفسهم بتلك التوقعيات الشجية التي لا تصل إليهم إلا في فترات متباعدة .

ولا غرو في ذلك فانهم قوم في منأى عن مباهج الدنيا ولذاتها ، أوجدتهم الطبيعة في مدينة (محمود) من أعمال مديرية الغربية ، ذلك الاقليم البعيد عن وسائل الطرب والانشراح ، فكانوا لا يعرفون من الامور سوى عناء العمل والكد في مجرى الحياة .

عقدت تلك الحفلة لمناسبة إجراء مراسيم زفاف أحد الشبان الذي بنى على فتاة من إحدى القرى المجاورة ، فما أن زفت إلى منزلها حتى احتشد القوم من معارف وأصدقاء ، قدموا للتهنئة ، ومشاهدة الحفلة .

و كان ذلك المنزل يقع في حي أهل بالسكان بالقرب من ضفاف (نهر النيل السعيد) ، الذي يمر على تلك البلدة ، يشق أراضيها بمياهه الحفرة ،

فازدانت به وجباها نعمة لم تنلها غيرها من البلدان . وانتهى عزف الموسيقى فصفق الحاضرون طويلا حتى ظفرت الحجرة إلى أكتفهم ، غير أنهم لم يكفوا عن ذلك إلا عندما أشار (رئيس الفرقة) إلى مروءسية يستأهبهم في العزف من جديد ، وبما قليل كانوا يقومون بمصاهير خيرة قيام .

واجتذبت الجمهور شاعرية الموسيقى وأخذهم سحر عزفها ، فتركوا حبل سرورهم لغاربه ، وما لبثوا أن قاموا على أعقابهم ، وأخذوا يرقصون رقصات المرح والانشراح ، يستغلون سنوح الفرقة قبل فواتها . ولا عجب في ذلك فمن منهم يكلف نفسه مشاق إحضار (موسيقى) من

عاصمة المقاطعة البعيدة ؟

فأخذوا ينتهبون من الممرات والمجبات ما يرفع بهم عاليًا في سماء
الافاريح والجدل .

وعكروا صفوفهم وحبورهم جلبة عالية وضوضاء مرتفعة ، وجفأوا
مذعورين لصيحات الاطفال وصراخ الغلمان والاولاد الذين استداروا
حول عقد الاجتماع .

وميزوا صوت شخص يعهدونه من قبل ، فأسرعوا وهدأوا في
مقاعدهم السابقة ، وأدى ذلك أيضا الى انقطاع الموسيقى عن العزف ،
بينما رنت الارعاء بصدى صوت قوى النبرات يتوجه لكل من وجد
بالمناودة وفي طهجة التحدى . ورفرف على رؤوس الجميع الطير ، ولم
يجسر واحد منهم على أن يثبت بينت شفة كالم يملكوا القوة للتحديق
في وجه صاحب الصوت ، بل غض كل الطرف حسيما .

كان صاحب الصوت شابا ضخم الجسم ، عريض المنكبين ، أحمر
الارومة ، يناوى القوى ، وعمايل الضعيف ، لا يخشى هبة من ، ولا
يتواقر لشيخ ، عيانا بالأذلام والارجاس ، اذا اجتمع في ثلة من رفاقه
وتنازعوا في أمرهم ، بدا منهم وعلام بكلمة من عنده فيلجأوا كاهم صمتا
ورغبة منه .

لنا نشأة حقيرة ، إذ شب على الفساد ومعاصرة رفقة السوء . قضى
ردحا من غلوميته يرتاد شواطئ القدران والمستنقعات يحمل شحمه
شعبة قرنائه ، ويغطس في الماء حتى تندوته (١) ، يعاكس سكان الماء
يماء أن ألقى بمشاغباته سكان اليابسة .

وكانت — إذ ذاك — تخرب به دولة الشباب في عباب الحياة ، فأخذ
يناوى الأهلين ، ويتاوم كل من تعاو كلمه يريد نزع السيطرة له ، حتى

(١) تندوته . — منزلة الندى عند الرجال

عجبت البلدة بشروعه ، وهالتها أعماله وموكلاته ، فأنت تحت أعباء ذلك الروح الثقيل الذي يكاد يصرعهم تحته .

وكان والد ذلك الطاغية شيخا هادئا ، بلغ من العمر أرذله ، ضعيف الجسم ، تنأت أشاجره ، وبرزت عظامه وخطط شمرد المشيب ، يتوكأ على غصن أخضر .

فقد سيطرته على ذلك الشاب — ولو أنه لم تكن له عليه سيطرة — منذ نعومة أظفاره إبان عهد البأبة (١) حين كانت أمه تدنيه وتدله ، تقيه شر غضب الوالد (البار) ، ولاعجب بعد ذلك فإن (تهاى) — الشاب — خرج من جامعة الفتوة إلى الغلومة فالشباب ، وقد أتقن علوم النطاح والضرب والسباب على يد أستاذته الماهرة (الوالدة) .

ولم يعقه شيء اسمه القانون ، ولا شدة أولى الأمر عن اظهار بطشه بل أزد ذلك من جنون ثورته ، فراح يطيش الطيش كله ، يعمل بالنزق المغرى صماه ، فيظن أنه ابن مجدها ، لا يتوانى من تفخ أوداجه سرورا ويحمله شروره على أنه رب البلدة وسيد شبانها .

وفي ذلك المساء بينما كان يضرب إلى منزله في صحبة فريق من قرنائته الألى جعلوا من أنفسهم أتباعا له ، فجعلهم هونا على الشدايد ، إذ أخذ سمعه عزف موسيقى في حى يقرب من مأواه ، فأشار على من معه بالتوجه إلى هنالك ، حتى ينالوا بهجة وجورا من تلك الأفاريج الطارئة يودون اختلاسها .

ولم يجد رفقاءه مندوحة من طوع أمره بالرغم من أن النعاس قد بدأ يلعب بأجفانهم ، وفتحت أفواههم تتأب المرة تلو المرة ، وقد أثر فيهم هواء الليل الرطب ، والنسيم الخفيف الذي كان يهب عاليا ليليا تقدم تهاى يتبعه أعوانه ، وصالح بمن وجد أن يفسحوا له طريقا

(١) البأبة — مناداة الطفل لوالده (بابا)

الى وسط المجتمع المعقود ، ثم شق الجمهور المحتشد ، وعرج على أحد الحضور وانزع منه عصا ضخمة ، وأشار الى (الرئيس) أن يعزف أحسن مالدیه ، وحاول (الرجل) أن يعترض على تلك اللهجة الجافة التي يتحدث بها ، وتلك الفطرسية التي يبدىها ، إلا أن رب الحفلة ، وابنه (العريس) ، أشارا له أن يذعن لمطلبه ويفعل ما يريد حتى لا تسوء العاقبة وكىلا تكون النهاية وخيمة .

وأخذ الشاب يرقص ويتلوى ويتحرك بحركات يعجبها الذوق وتسأم لها النفس ، لكن الناس تسايروا وتمائنه ، حتى لا يريهم ما في جعبة شروره من الويلات والمرعبات .

وأخذ يختلس النظرات أثناء رقصه بالعصا الى الشرفات ، ويميل بعينه من هذا السطح الى ذاك ، ثم يتحول الى ما وراء النوافذ على يرى أنثى من بنات حواء ، ترى منه حركاته وسكناته ، ليمتع بمرآها حدقتيه ويستشف منها أهواءها نحوه .

لقد كان - إذن - لا يفعل أفاعيله تلك الا لجذب أنظار الجنس اللطيف نحوه ، ولا ينبغي من محاولاته العنيفة تلك ، ولا يامل من وراء سياسة مناوآته العديدة الا تطاير اسمه على ألسنة النساء ، يريد أن يتخذ ميدانهن مرتعا خصيبا يحقق فيه أحلامه فيروح فيه ويغدو ، ولكن أمانيه ما زالت بعيدة ، غير أنه كان يعمل النفس أنها في حيز التحقيق في القريب العاجل . وكانت عيناه كرئبق رجراج عيلى من جهة الى جهة ، وأنفاسه تتردد سريعا وقد أخذ يلهث لفرط تعبته ، غير أنه أخفى ما بدا عليه من ذلك الامر حتى لا يعيرونه بالانخدال على هذا النحو .

وبينا هو مشغول برقصه ، وعيناه مشغولتان بالمراقبة ، اذا أخذ نظره شيئا في طيات الظلام المتباعد ، جعله يكف عن الرقص فجأة ، وقد وجد عذرا برر له ترك المجتمع ، فطرح من يده العصاة ، وانتظر قليلا ، ثم

انطلق في سيره بعد أن أشار لرفقائه بعدم متابعته ، فامناعوا أمره صاغرين
و كأن حملاً ثقيلاً أزيح عن كاهل أرباب (الحفلة) والحاضرين ، فلم
يهتموا إلى أين وجهته ، بل أقدموا على سرورهم مغتبطين لذهابه

ولم تكد تمض فترة وجيزة على سير ذلك (الشرير) حتى طرق
أسماعهم — إبان وهلة سكون قصيرة — صوت استغاثة من مكان قريب
مظلم فأرهقوا آذانهم وميزوا الصوت واضحاً ، وكان يبدو نساءً يتخلله
نبرات الضعف والهزيمة ، فهبوا كلهم كتلة واحدة ، وتناولوا المصابيح
يكتشفون بها الطريق ، وما أن واجهوا المسكن الذي صدر منه الصوت
حتى جمد الدم في عروقهم ، ولم يجدوا قوة كافية على التقدم ، فوقفوا
معهودى الأسن

وكانوا قد شاهدوا منظرًا مريعاً عقد عليهم الرعب فامتسكهم الخوف
إلا أنهم نظروا إلى بعضهم نظرات التجلد ، وشدوا أزر بعضهم وهملوا
بمجموعهم حملة عنيفة كأنهم سائرين إلى حومة الوغى
كانوا قد رأوا الشرير تهاوى يسند ظهره إلى حائط ، وأمامه فتاة
ناضجة ، ممزقة الثياب ، تظهر عورتها واضحة جلدية ، والدماء القانية تسيل
على فخذيها ، وقد ظهر ثدياها مشوبان برزقة وورم أثر قبضة ذلك الوحش
الجافة ، ووجهها محتقنا للوعة المفاجأة ، والدمع الملتون يهطل على وجنتيها
وياليت كان ذلك فحسب ، بل كان هناك على الأرض شخصاً طريحاً في
بركة من الدماء ، وقد ولت عنه حشرة الموت منذ حين ، وصار جثة
هامدة مخضبة بالدماء الحارة .

وكان وجه تهاوى ممتقعاً ، وأصبح جسمه يرتجف ويلتفض بشدة ،
وقد قبض في يده على خنجر يلتمع منلاً لثاً على أنوار المصابيح التي يحملها
القوم ، وقد لوث بالدم ، كما تلمطخ ثوبه ويديه به أيضاً ، ولما شعر بهم
على رأسه تجهم وجهه وتعاصت عضلاته ، وتملكه غيظ أخذ امتزج

بهريق عينيه .

وخشى الناس أمره فترثوا في مكانهم ، وصمموا لسان الفتاة ينطلق من عقاله ، والعبرات تنهمر كالسيل على وجنتيها المكفهرتين ، وقالت بكلمات متقطعة تشرح الأمر دون أن يسألها أحدهم :

— كنت قد عولت على الذهاب إلى منزلي بعد أن أخذت كفاية نفسي من انتهاب السرور في الحفلة ، ولكني ما كدت أتوغل في الطريق المظلم حتى شعرت بوقع أقدام تقترب من خلفي ، ثم وجدت نفسي بعد لحظة وجها لوجه مع ذلك الشقي ، وطارحنى الغرام يريد أن يتمتع هنيئاً بالمشتريات الجنسية المحرمة ، غير أنني سرت دون أن أفوه ببنت شفة ، ولكن ما لبثت أن شعرت به قبض على ، وأغلق فمي بيده القوية ثم قضى ما ربه مني رغماً عني

قالت هذا ، وأخذت تبكي وتنشج نشيجاً مراً ، ثم واصلت حديثها قائلة :
— نعم لقد افترض غفائي على قارعة الطريق ، وبينما هو كذلك إذ صادف سير هذا الشاب طريقتنا ، وعاهده يرتكب ذلك الأثم الكبير فعزم على مناوئته ومساعدتي ، ولكن بعد أن سبق السيف العذل وتركني جانباً ليرى أمر هذا المفاجيء ، ولكن الآخر استعده له ، غير أن المجرم أخرج خنجره وطعنه به في حنجرتة طعنة نجلاء لم يتمكن لها من الصياح . . هذا ما فعله ذاكم الشرير .

والتجم الناس صمماً طول تينك الجريمتين ، ثم مرث لحظة وكأنا على رؤوسهم الطير ، وبعد هنيئة تحوات نظرات كل منهم إلى رفيقه ، ورآهم يستثيرون العزائم للإيقاع به ، وصاروا يتقدمون رويداً رويداً غير أنه انفجر مرة واحدة فأخذتهم التشعيرية والرعب ، وقبل أن يتبينوا ماذا يفعل رأوه يقفز قفزة هائلة وعدا قايلاً ثم اتقى بنفسه في ماء النيل القريب .

وامتنعوا قهرا وغيظا حيث أرادوا أن يقدموا ذلك المجرم المحاكمة كي تقتص منه العدالة الانسانية التي أزعمها ، قبل أن نؤاخذة على ذلك العدالة الالهية ، وبحشوا عنه في الماء طويلا على غير جدوى ، ولما أعيانهم ذلك كفوا البحث وهم يتأسفون لافلاته ، وظنوا أن التيار حفر جثته الى عرض النهر ، وكانت الحشرات تأخذ سبيها الى نفس كل منهم ، بينما كانت تحقيقات أولى الأمر تستطلع أسرار الجريمتين ، وكل شخص يهيم (١) أن تهاجم هو المجرم القاتل .

وأدت الفتاة شهادتها باكية ، وأدى الرجال أقوالهم أنه انتحر ، غير أنها التفت اليهم وقالت لهم متفعمة :

— قد لا يموت هذا الشرير ، ويرجع لنا مرة أخرى يظهر لنا مالا يخطر ببال .

الفصل الثاني

في مكة المكرمة

لنترك تلك الحوادث على أن نعود للتعليق عليها فيما بعد ، ولنتقدم بالاعوام بعد ذلك ثمانية عشر ، ثم لنذهب مع القاريء الكريم (بالخيال) الى مكة المكرمة (ان شاء الله تعالى) .

مكة ، وتسمى أم القرى ، مدينة زاهرة كبيرة ، وهي عروس بلاد العرب ، ترتفع عن سطح البحر بنحو ثلاثين وثلاثمائة متر ، وتضم عمارتها الى عهد ابراهيم وابنه اسماعيل عليهما السلام ، وهي قصبة الحجاز وقلب الدولة الاسلامية .

تتمد من الغرب الى الشرق على مسافة أربعة أميال ، ونصف ذلك عرضا ، في واد مائل من الشمال الى الجنوب منحصر بين سلسلتى جبال

تسكاد ان تتصلا ببعضهما من الشرق والغرب والجنوب ، ولذلك لا تشاهد أبنيتها للقادم الا وهو على ابوابها .

وفي زمن الحج تفص بكثير من الحجاج يقبلون اليها من جميع أنحاء العالم الاسلامي ، يتشرفون ويتبركون ببركة النبي ﷺ ، والسكينة المعظمة شرفها وحرسها الله .

وفي ذلك العام كان ازدحام الناس شديدا من كل الاقطار ، وكان من بينهم الركب المصري يزخر بعدد عظيم من القاصدين زيارة بيت الله الحرام .

ولو تقدمنا قرب طائفة الخارجين من الحرم ، لوجدنا شيخا كبيرا أفنته السنون ورققت من جلده ، ذو لحية بيضاء ناصعة ، ومعه رجلا آخر هو موطنه يبلغ من العمر الأربعين ، له لحية خالكة كثة ، ولم تعمل غضون الكبر في وجهه شيئا ، وقد وخط قليلا شعر رأسه المشيب وكان هذا يصحب الشيخ بصفة (وصيفه) وولي عهده في زمام العبادة . والتقت نحوه الشيخ وقال له في بهجة واضحة :

— ها قد وصلنا الى أمنية ايماننا يا حاج عمر .

فتتم المدعو الحاج عمر بكلمة أو كلمتين أجاب بهما حديث الشيخ ، واستطرد هذا يقول :

— هل دقت رقابتك على الامتعة كما أفهمتك قبل قيامنا من جدة على متن الابل ؟

فنظر الحاج عمر الى زميله نظرة قصيرة ، وقال له بصوت خشن يتم عن جسم صاحبه القوي :

— كن مطمئنا يا حاج ابراهيم . ان (الجمال) لا يستغني عن حياته ليسرق منا أشياء تافهة لآسد جوعه ولا تنفعه

فضحك الشيخ ابراهيم ضحكة قصيرة لم يسمح له ضحك جسمه

بأتمامها ، ثم قال مازحاً :

— وماذا كنت تنزل به لو خائنا يا عمر ؟ . أتعيد معه لعبة من الأعياب

الطيش الماضية ؟

فرمقه الحاج عمر شذرا ، ثم انطاق لصاحبه جذلاً يحاوره .

— ولم لا يا عزيزي ؟ لو سرق منا شيئاً لسرقت منه يده مقابله . أليست

أحكام الشرع الشريف تسرى بنصها في هذا المكان ؟ .

فغضب الشيخ ابراهيم لحديث الحاج عمر ، وصاح فيه :

— نعم إن الامر كذلك . ولكن ضع نصب عينيك أننا مصريان ،

والمصري كريم مسامح ، فلا تؤاخذ أولئك التعاء الذي يعيشون في القفار

على امتداد أيديهم إلى شيء نأفه كأمتعتنا يتبلغون به

وصمت الرجل قليلاً ثم نظر إليه واستطرد في تمهل :

— حاج عمر : أما زالت تلك النفس القديعة عالقة بجسمك ؟ . النفس

الشريرة التي حاولت جهدى تغييرها بأخرى صالحة حتي فزت أخيراً بما

أريد . . يلوح لي أن آثار تلك النفس مازالت معك على الرغم من حاول

روح جديدة طاهرة فيك . . .

فأطرق الحاج عمر يبصره إلى الارض ، وعمل في نفسه كلام استاذة الكبير

الشيخ ابراهيم ، وتذكر حسناته العديدة التي غمطها عليه ، وكم حاول

جهده تهذيبه حتى فاز ، . فرمقه بعين دامعه وقال والعرق يكاد يتصبب

من جبينه :

— كلا يا سيدي . كلا . إن الروح الجديدة الطاهرة هي التي تسيطر على

جسمي الآن . إن تعليماتك المقدسة لدى ، وشرعية الرسول الغراء ،

وحكم القرآن الكريم . كل تلك هي المصابيح الواجبة التي تنير سبيلي المظلم

(القديم) فتبدد غياهب تلك العشاوة الكثيفة التي كانت تحجب عني الرشاد

وتحول مرأى الشيخ ابراهيم إلى هيئة البشر والاطمئنان ، ثم قال باسماء :

— أنعم بك من رجل بمعنى السكامة . . رجل نقي صالح ، تسير على المبادئ
الوضعية التي قررتها النواميس مما يؤهلك جيد الولاية منصبي بعده وتي .
وايت قليلا ، ثم رأى دموعا تظفر من عيني الحاج عمر ، فواصل
حديثه بمشقة يقول :

— الآن يا عزيزي ها قد زرنا السكبة المشرفة ، فأرى أن أطوف معك
في زيارة بعض الاماكن المقدسة التي لها ارتباط بمحادث النبي ﷺ .
فسر الحاج عمر لدى سماعه قول استاذة وصاح طربا :
— إن ذلك مما يسرني جدا يا عمه . .

وغفم الشيخ ابراهيم بصوت تنهم نبراته بالسرور :
— اذن ادع جمالا يكون على علم بطريق الصداري ومجاهلها :
فأجاب عمر بكامة واحدة ، ثم انطلق يبحث عن (الدليل) ، بينما
كانت أصابع الشيخ ابراهيم (تفرط) السبعة سريعا ، وفيه ينطلق
بتسبيحات خافتة .

وكانا قد نزلا بمقهى فاخر في شارع جياد - أهم شوارع مكة - ويثما
تمتلكان الراحة قليلا مما تانياه من وعشاء سفرهما المتعب الطويل .
وكان الشيخ ابراهيم في لهفة وشغف لزيارة الاماكن المقدسة التي
بظاهر مكة حتى يكحل بها مرآه ، مما جعله يطلب تحقيق ذلك من
الحاج عمر بشوق واهتمام .

وعاد الحاج عمر الى المقهى بعد هنيهة يتبعه أعرابي قوى الجسم
وتلوح عليه الامانة من بريق عينيه ، وجلسا معا الى الشيخ ، وأخذوا
يتحدثون في امر الزيارة ، ولما علم الرجل أن زيارتهما خصوصية ، عرض
عليهما أن يريهما قبري الطاهر والطيب ولدى رسول الله ﷺ في (الطائف)
وأعجب الشيخ ابراهيم بذلك ، فامهانهما حتى الصباح ليعمد المعدات
اللازمة ، ويحضر لهما ثلاثا من كرام الابل . .

وقال الشيخ ابراهيم يحدث (الدليل) بلهنة :

— وما المسافة بيننا وبين الطائف ؟

— لاوصول اليها طريقان ياسيدي ، ولكل اختيار ماوافقكما .
فهناك مسلك القافلة ، ويبلغ مقدار السير فيه ستة وثلاثون ساعة ، وهناك
سبيل البغال (على جبل كرا ، ومقداره مايقرب من منتصف الاول ،
غير أنه يفص بكثير من القرية والوحوش الضارية ، خصوصاً على جبل
لهدي أحد أجزائه .

فأسرع الحاج عمر وقال جذلاً بينما كان يفرك كفيه أثر عاطفته :
— أرى أنه من الاجدر لنا أن نسلك (طريق البغال) ، فإنه أقصر
وقتا من الاول .

فنظر اليه الاعرابي شذراً وقال :

— ان الطريق خطر ، فبطل تقامر بحياتك ومن معك ؟

فابتسم الحاج عمر ، وربت على كتف الاعرابي بسرور ، وقال :

— اطمئن ياعزيزي . سأعد للامور عدتها ، فلا يطرأ على بالك

أنى أسافر أعزلاً .

وأسرع الشيخ ابراهيم الى الاعرابي وقال له :

— ألا يوجد هناك أما كن مقدسة نزورها أثناء رحلتنا ؟ . .

— هناك (المحلي) ، وهي مقبرة مكة ، سنزورها أثناء سيرنا .

وتماكنت عاطفة السرور أسارى الشيخ ، فلما لبث أن اشار الى حامل

المقهي ان يحضر الرجل مايريد ، وبعد قليل احضر (العامل) اوانى

واقادح الشاي والقهوة ووضعها امامهم على الارض .

كان الوقت مازال مبكراً حتى يحين ميعاد التاسع والعاشر من

ذي الحجة ، مما جعل الشيخ يسرع برغبته في التجوال قليلا بين الارجاع .

للمقدسة التي جال فيها صفوة الانبياء وخيرة الصالحين في المصور السائفة .

واتفقوا على ان يبدأوا السير من اليوم التالي ، بعد ان يرتب الشيخ ابراهيم الضيف والحاج عمر القوى ما يحتاجاه من الامتعة لهذا السفر .

الفصل الثالث

ظواهر حسن العبادة

وفي ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي وبعد صلاة الفجر ، ذهب الحاج عمر بصحبة استاذة الى المقهى ، وبعد قليل وافاها الدليل بابه ، ثم اخذوا يحملون ظهورها بمختلف الامتعة اللازمة ، واخذ الاعرابي قربتين مملأها ماء من المقهى ، ثم وضعهما في امكنة خاصة بهما على متن جمل على الهامة قليل الاحمال

وتحسب الحاج عمر منطقته ، ثم رفق الشيخ ابراهيم ببصره ، ونمض إليه بإشارة ذات معنى ، وقد اطمأن لها هذا . وأخذ الحاج عمر يصعد بصره طاليا إلى جبال أبي قبيس التي تشرف على مكة من الجنوب الشرق ، ثم حول نظره إلى سيده والدليل ، وقال وهو يهز لهما رأسه :

— من منكم يا نحش الوحوش الضارية والهوام الفاتكة ؟ ..

فابتسم الشيخ ابراهيم وقال بلمهجة الواثق :

— إني لأخشى شيئا مادمت معك يا عزيزي .. إني لأتوسم فيك البطولة الى جانب خلة الصلاح . ففض الحاج عمر ببصره احتراماً وقال :

— ان ذلك ياسيدي لم أكتسبه الا من تعليماتك الشريفة القوية

كانت شوارع مكة في تلك اللحظة خالية من المارة تقريبا ، ولم يكن هناك من احد يسير سوى نفر من حجاج الهند والصين وجاوة ، خرجوا متفرقين بدافع الشوق والتلف يستطلعون اسرار مكة الجذابة وامكنتها الجميلة ، وكان الجو يكون هادئا لو لم يكن يردد اصداؤه صوت الاعراب الذين يعلنون عن الالبان ، يسحبون خلفهم نياقهم وشويحاتهم . .

وسارت الابل تحمل الحاج عمر والشيخ ابراهيم والدليل الاعرابي (ابن زيد) وخرجت من مكة ميسمة شطر الصحراء ، ولا يعلم وجهتهم احد ، وبعد برهة وجيزة خلفوا الباب الشرقي وواجهوا المثلج (وهي مقبرة مكة) فترجلوا واخذوا يطوفون في ذلك المكان الذي يتجلى بالنداسة والخشوع الرباني ، ولا غرو فقبحا ضريح السيدة خديجة زوج النبي ﷺ وهو داخل قبة ثمة تجددت منذ اكثر من نصف قرن ، وفي القبة مقصورة من خشب الجوز اقيمت على قبرها الشريف ، والى جانبها مقصورة صغيرة يحتمل ان بطن مدفنها سنة عشر شخصاً من اشراف مكة . وبعد ان زاروا ضريحها ساروا خارج تلك القبة الى الغرب ، وكان في سبيلهم قبر حرم ما كن الجنان مجد على باناء ، اذ كانت قد توجهت الى الحج عام ستة وستين والاف ومائتين من الهجرة ، وابست نداء ربها هناك . وقصدوا قبة السيدة آمنة بنت وهب والدة الرسول عليه الصلاة والسلام وتقع قريباً من ضريح السيدة خديجة ، وزاروا ايضا قبتي ابي طالب عم النبي وعبد المطلب جده ، ثم خرجوا في طريقهم على قبر سيدنا عبدالله بن الزبير رضي الله عنه فوجدوه بدون قبة وكان قد هدمها الشريف عون الرقيق أمير مكة . وأراد الشيخ ابراهيم ان يحتم الزيارة برؤية قبر أمير المؤمنين أبي جعفر المنصور ، الذي أتى مكة للحج عام مائة وثمان وخمسين للهجرة ، وطلب من الحاج عمر والدليل ابن زيد أن يسهله ذلك الامر ، وكان ابن زيد لا يعرف موقع هذا القبر ، فامعن الفكر قليلاً ثم اتى اليه يقول في لهجة تأكيد :

— اني أجهل مكان هذا القبر يا سيدي ، ولكن تمهل قليلاً فمأسأل عنه شيخ المقابر . قال هذا وانطلق في السبيل الى الرجل ، بعد أن أشار الشيخ ابراهيم بالانحياز ، وغاب قليلاً ثم رجع لها يضحك أسفاً وهو يقول :

(٣ - الحاج)

... حقا اني أرجع من مهمتي كما يقولون « بخفي حنين » . فالتفت سألت الرجل عما تبتهني فأجابني بصدق أن قبر أبي جعفر موجود هنا في المعلى ولكن لا أحد يعلم ضبط موقعه ، واخبرني ان كثيرين من الحجاج والزوار يسألونه مرارا عن هذه المقبرة ، ويلجئون عليه في ضرورة دلائهم عليها غير انه يتأسف لهم حيث ان لا احد يعرف مكانها . .

وتأسف الشيخ ابراهيم (الرجل الصالح الصادق العباد) بدوره ، وتبتهني على ذلك الحاج عمر ، ووجدوا انهم قضوا ما ربههم من المعلى فخرجوا منه يطلبون الصحراء ، وبعد هنية صاروا بها ، ووطدوا العزم على زيارة غار حراء وهو الغار الذي كان يتم فيه النبي ﷺ ، ويقع على قمة جبل النور وتطرق السرور الديني الى قلب الشيخ ابراهيم عندما صار مع رفيقيه امامه فلم يلبث ان بكى بدموع طارة انهمرت على وجنتيه ولم يتمالك ان خر لله ساجدا ، واخذ ياتهل ويدعو الدعوات الصالحات . .

كانت الشمس قد ارتفعت في فلكتها ، وكان الوقت في فصل الصيف الشديد القيظ ، وكانت الحرارة تبلغ اشد ما عند ما وصوا امام (الكهف) ولكن بعد قليل اعتدل الجو وصار لطيفا كانه (ربيع مصر الزاهي) وهب الهواء نسيما عذبا حقا ان الله في حكمه شؤون .

وصار الشيخ ينادي بأسماء الله الحسنى ، ولم يمض طويلا حتى دب مثل ما حل بالشيخ في نفس الحاج عمر الذي كان وانما طول الوقت لا يخرجوا باوحانت نظرة من ابن زيد فجأة الى الأعلى ، فرأى مشهداً عجيبا لم ير مثله طول حياته من قبل ، كان قد رأى سخابة قد انفصلت عن كتلة كبيرة من النيم ، واستقرت على ناصية المكان الذي وقفوا فيه ، ووقع ظلالها على راس الشيخ ابراهيم .

ولم يكن ذلك لحسب ، بل رأى ان السخابة قد انفرج وسطها عن ثعب صغير ، فوجدت اشعة الشمس لنفسها منه مسلكا ، فارتسأت خيطا

رفيعاً من ذيوطها وقع على منتصف رأس الرجل . وحقق النظر كثيراً
فراها تدارت كرات واستقرت في مكانها برغم شدة الهواء الذي اخذ به
تباعاً ، وفكر الى مكان الحاج عمر فرأى الشمس تشعله ، ولم ير شيئاً مثلما
رأى عند الشيخ ابراهيم ، فذاً كدليله ان ذلك الرجل هو احد من رضى
الله عنهم فآخذهم جنوده في الارض ينشرون تعليمات كتابه الكريم ويعملون
على تعميم لوائه الحق ودينه القيم .

ولاحظه عليه ظاهرة اخرى اشد غرابة من الاولى ، فانه كان يرى
ذلك الشيخ كطفل حديث الولادة ، لا قدرة له على التحرك ، اذ كان عند
له يد المذونة في كل ما يستقر اليه مما لا يحتاج الى كبير عناء ، ولكنه الآن
بدان في قرة تماكي مافي ريعان الشباب . لذلك ما كاد الرجل يفرغ من
أبتهالاته لله حتى شتم على يده واخذ يقبلها تباعاً ، وترك الشيخ له يده
والآخر لا يني عن لثها ، واخيراً سمعها منه ببطء ، ووقفوا يذرعون
واجبة (الفار) بأعينهم ، وقدروا مساحته بنحو ثلاثة أمتار في مترين
والصمت الرهيب يسود ما حو اليه .

يا لله من رهبة هذا المسكان الالهية ، كافي بها قد خلقت ووجدت به قبل
أن يذسى الله العالم ، وازدادت جلالاته وقدر احين هبط الوحي على النبي ﷺ
يباطه الرسالة الى الناس كافة ، فاهتز الجبل بأرجائه من تحته لهيبة من
يحملة ، ولم يسكن الا عند ما أشار له النبي بالهدوء .

ولذلك عزم الشيخ ابراهيم على أداء فريضة الظهر أمام مدخل الكهف
فقاموا ثلاثتهم وأخذوا يصلون جماعة في ذلك المسكان الذي تشرف بمشوله
أول عبادة صادقة لله تعالى عليه ، وبعد الانتهاء عرض عليهم ابن زيد أن
يزوروا (منى) و (المزدلفة) بقية هذا اليوم . ثم (جبل ثور) الذي
به الفار الا ان اختفى فيه رسول الله ﷺ مع صاحبه أبي بكر الصديق حين
قصد الهجرة الى المدينة ، ثم مسجد بلال في جبل أبي قبيس ، وه مسجد قباء

أول مسجد أنشئ في الإسلام . وسر الشيخ إبراهيم لاقتراح (الدليل) ابن زيد ، وكاد يطير لفرط فرحه وسروره ، وكيف لا وقد نال ما كان يرجوه من الله طول عمره حتى يؤدي الركن الأخير من أركان الدين .

أما ما كان من أمر الحاج عمر فانه كان لا يبغي في نفسه من مناسك الحج هذه أداء الدين ، بل كانت لديه كأنها رحلة (جغرافية) شيقة يسلي بها نفسه ويمتع بها ناظره ، وكان يكتم هذا الأمر بطبيعة الحال عن أستاذه . . . وقد كان يماثله ويدهنه حتى لا يكف عنه تلك اليد السخية التي يمد بها ويغمرها عليه من تلك النقود (والاندرا) التي كانت تتقاطر عليه كالسيل وكان لا يحب في الشيخ إبراهيم سوى بسطة ظله عليه ، فكان يؤدي له ما يطلبه على أتم وجهه وبطبيعة خاطر ، ومكث حتى الآن في مشواه ثمانية عشر عاماً فضاها في راحة وطمأنينة ، لا يهتم لما كل أو لم شرب ، ولا يفكر في أي شيء قط .

وقد كان يحبه ويعظم شأنه ليس من وجهته الدينية ، بل فقط لتلك اليد التي يعيش من ورائها ، فيأله من رجل يلوح أنه قد جبل على الكسل في البحث عن اسباب العيش ، وقعدت به العزيمة عند ذلك الشيخ الكريم فأهمل نفسه الظاهرية ، واهتم لنفسه الذاتية الداخلية . . .

واتفقوا جميعهم على زيارة المناسك الباقية المبعثرة في أرباض جبال مكة وصحرائها . وبعد أن أتموا ما يبتغونه ضربوا خيامهم في بقعة نائية عن البلد لتقوم تلك الليلة ، وقد تلوع الحاج عمر في القيام بالحراسة مع ابن زيد بالمناوبة

الفصل الرابع

أحوال البادية

أشرفت الغزاة من خدورها ترسل خيوطها الذهبية على رؤوس الجبال والروابي ، ونهض معها الشيخ إبراهيم والحاج عمر من رقادها ، وقام معهما

ابن زيد ، وصار يساعدهما في ترتيب الامتعة على متن الابل ، ثم ابتدأوا في القيام بالرحلة الشاقة على متن الجبال القفرة . .

وصارت الجبال تهودج بهم في الطريق ، وقد توغلوا في بطن القفار بعيدا ، وأخيراً أشرفوا على جبل الهدي وكان ذلك عند الغروب ، فنظر ابن زيد الدليل إلى الحاج عمر وغمزله بعينه قائلاً :

— هانحن على وشك مواجهة الصعاب . .

فرمقه الحاج عمر شذرا ، وأشار له بيده مؤنباً ، وقال له بلمهجة شديدة :

— ساري صعا بك تلك التي تزعمها يا صاح . ان كنت جباناً فاصمت .

فابتسم ابن زيد ابتسامة خبيثة ، وضحك الشيخ ابراهيم ضحكة خافتة وصاح بصوت ضعيف :

وكان جبل الهدي يقع فوق جبال (كرا) ، وفيه جنات كثيرة تجري من تحتها الانهار ، فيها ما يشتهون من اثمار وأزهار ، قطوفها دانية ، رياحها جارية . . .

وما كادوا ينزلون فيه حتى بهت وجه ابن زيد وتقلص جبينه ، ثم أسرع وترجل مطيته ، وأخنى رأسه ، ووضع أذنه على الارض كأنه يسمع شيئاً مجهولاً ، واعتدل واقفاً وأخذ يدقق النظر الى الفضاء تارة ، والى السماء أخرى ورمقهما بعين قلقه ، وهز رأسه كالتأسف ، ثم صاح كن هزم :
— انى أتأسف يا سيداي ، لأننى مضطراً أن أمتنعك من التقدم أكثر من ذلك الآن خطوة واحدة . .

فأسرع الحاج عمر وقاطعه بلمهجة قاسية شديدة :

— ولماذا يكون ذلك . . هل هناك مانع جوهرى يقضى بإيقافنا .

وشبك ابن زيد يديه على صدره وهز رأسه مرة أخرى ، ثم قال متمهلاً :

— نعم . هناك مانع مهم يوجب عدم التقدم خطوة واحدة ، والا

فأهلك المحتم ينتظرنا كلنا .

فما رضى الحاج عمر في ذلك الامر بشدة وهر كتنبيه قائلاً :

— سنواصل المسير مهما قابلنا من العقبات ، فكان رجالاً أيها

فاهتمق وجه ابن زيد وصار كالأموات ، وصاح يرحوه .

— بربك ياسيدي تمعن في الأمر . ان عواصف صهراوية شديدة جافة

تهب على هذه الأنحاء في فترات متباعدة ، وفي تلك الأوقات تنهق

الوحوش الفرصة وتهجم على المار ، ولذلك أرى أنه من المستحسن أن

نضرب خيامنا في هذا المكان دون غيره ، حتى ننجو من شر ما ينتظرنا .

وشدد الحاج عمر في أمره ، وهو لا يريد التواني في المسير والتأخر

فيه ، قائلاً بعنف :

— لست أبغى البقاء هنا لحظة واحدة . لا تترقب الجبال ، هيا بنا

الى الامام . وحاول ابن زيد أن يفوز منه بالانتظار ، غير أن ذلك كان

دون خطر القتاد ، فصاح وهو يقرض بانيابه يحرق الأرم غيظاً من

ذلك المدعى الذي يسوقه الى حتفه :

— ساعتئذ كون خالياً من المسؤولية ، ولا لوم علي ولا تأنيب بمددك

وتدخل الشيخ ابراهيم في الأمر ، فنظر الى الحاج عمر نظرة رضاء

وقال له بصوت خفيض مضطرب النبرات :

— هل لك يا عزيزي عمر ان تنقاد له ؟ . . انه لعل معرفة وخبرة

من هذا المكان منا . . هو دليل الصحراء ورجائها ، فوجوده معنا

الآن بمثابة سكان (السفينة) لنا يوجهنا كيف شاء .

— يا للمعجب ! . . إن السماء صافية والجو رائق ، ثم تحدث اذن

عواصف وأخطار .

قال هذا وصمت قليلاً ، ثم اندفع يقول في عزم شديد :

— هيا . . هيا . لا أقبل التواني في المسير . أريد الاندفاع بهمة ونشاط .

وهكذا نفذ الرجل القوى الارادة عزيمته ، فانطلقوا لساعتهم في سير

حدث ، ومر على ذلك نصف ساعة ولاح الغبار على بعد ، ثم انكشف عن عاصفة هوجاء أخذت تحمل الرمال إلى أعينهم وأعين الابل مما جعلها تشرد قليلا في الطريق ، ولم يردها ابن زيد إلى مكانها الاول .

وصار الهواء الشديد يلمح أرديتهم ، ونظر الشيخ ابراهيم الى الحاج عمر نظرة قاسية ، وتحول الى مبدأ العاصفة وأخذ يحدق فيها بامعان ثم انثنى اليه وقال له في حرارة وألم :

— لم تركز الى الدليل ؟ لقد أخبرتك أنه أدرى بشؤون هذه النواحي من أى غيره . .

وأطرق الرجل أسفا وقد خجل لسوء تصرفه وضحك ابن زيد منه ضحكة تهكمية وقال :

— انى لم أك أبغ من المكان الاول مستقرا الا لانه بمعمل عن الضواري والزواحف ، وتصيبه العاصفة قليلا . أما هذا فانها تصب عليه جامات غضبها الى أقصى حد .

وما أن أتم كلامه حتى هدر الجو بسحب عديدة من الرمال ، تذررها الرياح في كل الأرجاء المحيطة ، وأخذت الاشجار المتفرعة على الجانبين تتمايل ، والافصان ببعضها تتضارب ، وبلغت العاصفة أشدها وبذل ابن زيد جهده في قمع الابل ، وأشار الى الحاج عمر أن ينصاع له ويفعل كما يأمره منذ تلك الآونة . وأمره أن يدق المضارب معه وسرعان ما أتما ذلك مهمة كبيرة رغم معاكسة الزوبعة لهما ، ولبت الامر كان قاصرا على ثورة الطبيعة عليهما فغضب ، بل تارت الوحوش المفترسة ، فارتفع عواء الذئاب طالبا ، واختلط مع أزيز العاصفة الرهيب .

والنبي ابن زيد أنهم قد أمسوا في أشد المأزق حروجة ، فأسرع الى الحاج عمر وقال له

— عليك بسلاخك الآن ، وسأخرج لأخطب قليلا لنوقد نيرانا

تضع عناشر الضواري .

قال هذا وتناول خنجره الحاد من منطقته ثم سار تواء ، واختفى متغافلا بين الاشجار الكثيرة ، ووقف الحاج عمر لحراسة مقرهم ، وبينما كان يجيل الارف في جهة تنسدل عليها الاشجار عند حد البصر اذاخذ اهتمامه بريقا مزدوجا ينبعث من عينين لامعتين ، فاسرع الى داخل المضرب وتناول غدارة حشاها بالرصاص ثم خرج الى مكانه . وكان البريق يقترب جهته رويدا رويدا ، وكان الليل قد أوشك أن يرخى سدوله ، والظلام يزحف شيئا فشيئا يلحق بلسانه ضوء النهار الاقل ، وانتظر قليلا حتى صار ذلك البريق على قيد خطوات منه وأمعن النظر فيه مدققا فبرزه شبح فهد جبلي تمتد الجسم كاسر الخلقه فامهله قليلا حتى اقترب كثيرا ثم سدده اليه غدارته وضغط عليها مرة واحدة ، فانطلق منها حشوها وقد امتزج بهدير كهزيم الرعد صدر من الوحش الهائل .

ولم تكد تمر فترة وجيزة على سكون ذلك الصوت حتى أخذت تتجاوب أصدااء الجوا أصوات نثرها عجة ، وصار المكان يضيح بها كيوم غائم ضروس تنزل الارض فيه تحت انفجار القنابل ، وهلع الحاج عمر وجزع رعبا الا انه طرح عنه اعباء الهم والخوف ، واستمد العزيمة من نفسه الجانحة ، وصوب قوهة الموت الى جهة الزئير وانتظر قابلا حتى رأى اشباح بضمة وحوش تأخذ طريقها نحوه ، وعينى كل منها تلتمع ببريق بكاد يخطف الابصار ، وهى تتحرك في كل جهة .

واطلق رصاصة بين بريق عينين ، وارتجت اثرها الارزاء بزئير عاد وصار الحاج عمر يطلق الرصاص ويصيب الهدف كل مرة ، واخيرا تراجعته الوحوش الى حيث جاءت ، وما كاد الجوا يهدأ قليلا حتى اخذ سمعته انين خافت صدر من الجهة التى سار فيها ابن زيد ، فاسرع الخطا سائرا

نحوه ، وما كاد يتقدم قليلا حتى وجد البدوى يمرج بضغف وملايسه ممزقة ورأى ما احتطبه فوق ظهره يكاد ينقضه ، فأخذ بيده وساعده على التقدم من المضارب .

وخرج الشيخ ابراهيم في تلك اللحظة ليرى ماذا يفعل الحاج عمر اذ ربما يكون في حاجة اليه ، وكانت الريح قاسية شديدة ، فلفحت رداءه وأطارته على مسافة قريبة من دغلة .

وأسرع الى الرداء يرده ، وبينما هو راجع في سبيله الى المضرب اذ التف على قدمه شيء لين ، فصرخ صرخة رائمة تخالت أذات الريح ، وسقط على الارض فاقد الرشد .

وهروا الحاج عمر نحوه وحمله الى داخل مضربه ، وأتى ابن زيد منهوك القوى يستطلع ما حدث لذلك الشيخ الطيب القلب ، وأفاق هذا من اغمائه سريما ، وقال للحاج عمر بصوت خافت يتخالاه الارتباك :

— هاقد حان موتى يا عزيزى عمر ، لقد عضني أفعى فى طريقي .
وما كاد يسمع مقال سيده حتى عمد الى خنجر معه ، وبضع به مكان العض ، وصار يمتص الدم بفيه ويمسحه على الارض ، وأسرع ابن زيد الى زجاجة يحتفظ بها ، وتناول منها دواء عرييا ، ودهن به مكان الإصابة وحمله الاثنان الى مرقده فسقط سريما فى سبات عميق .

وأقام الرجال بأمر المراقبة ، ولاحظ الحاج عمر على ابن زيد التعب ، فسأله أمره ، فأجابته :

— أثناء رجوعى من التحطيط بهم على ذئب ضار ، فألقيت عنى حملى واستللت خنجرى ، ووقع بينى وبينه معركة هائلة دارت الدائرة فيها هليه ، ولكنى دفعت ثمن انتصارى ففقد قوتى وتبرمج جسمى .

فضحك الحاج عمر ضحكة خافتة ، وقال :

— هنيئا لك بالنجاة . ولا تهتم لما نالك فستسترجع قواك عما قليل .

الفصل الخامس

ولى العهد

ولى الظلام وقد ولت منه ثورة الطبيعة ، فأصبحت الشمس مشرقة والجو صافي الاديم ، والحركة ساكنة ، وتحسنت حال الشيخ ابراهيم قليلا ، واسترجع ابن زيد ما فقد من قواه أثناء مصارحته الذئب بالامس ، وقام الحاج ممر بإعداد طعام الافطار .

وبالرغم من الضعف الذى مازال ساكنا فى جسم الشيخ ، فإنه أحس على استمرار السفر سريعا ليعالج نفسه عند أحد أطباء الأعراب فى الطائف . ووصلوا الى الطائف وقد عاينوا الأمرين فى أقام سفرهم ، وكان ذلك قبيل الظهيرة أى بعد مضي ثلاث ساعات من رحيلهم من المدينى . وزاروا قبة الطاهر رضى الله عنه ، واستقروا عند مدفن الطبيب (ابنى النبي ﷺ) ، ولم ينسوا زيارة قبر سيدنا عبدالله بن العباس .

صاروا أخيراً فى الطائف . . . تلك البلدة الجميلة التى تتم عن شكل وردة فى الصحراء . تلك البلدة التى كان بها معبد اللات والعزى (١) فى زمن الجاهلية ، وكانت تدين بهما ثقيف وغيرها من القبائل المجاورة للطائف وقد ذهب النبي ﷺ الى تلك القبيلة فى أول النبوة ، وطلب منهم نصرته فأبوا عليه ذلك . .

واستحضر ابن زيد طبيبا أعرايا مشهورا بمجودة مهنته ، ولما فحص الشيخ ابراهيم استبان خطورة حاله ، فكتّم الأمر فى نفسه ، وقال للشيخ مداهنا - ما عليك من بأس . ان مرضك لا يحتاج الا للراحة والهدوء .

وفى أثناء خروجه مال على الحاج ممر ، وقال له بهمس وفى أسف شديد : - أعلم ياسيدى أن حاله فى أشد الخطورة ، ويسوؤنى أن أعرفك

(١) من المعبودات التى كان العرب يعبدونها قبل الاسلام .

أن أعرفك أن لا حياة لدى لا تقاذه من مخالف الموت ، ولكن خذ هذه ودعه يتناول منها ثلاثا يوميا ، ربما يخفف عنه ذلك وطأة المرض .

قال هذا وأعطاه زجاجة تحوى شيئا من الدواء الكروى المبلور ، وبعد أن خرج اثنتى الحاج عمر الى الشيخ ابراهيم ، وما كاد هذا يشعر بوجوده حتى التفت اليه وقال له بضعف :

— عزيزى عمر .. انى أريد الرجوع الى مكة خدا ..

فارتعب الرجل لدى سماعه تلك العبارة ، ونظر الى سيده نظرة اشفاق وحنان وقال :

— مهلا .. مهلا ! انك ضعيف وفي حاجة الى الراحة .

فقبالك الشيخ ابراهيم جهده وصاح قائلاً :

— كلا . لست فى حاجة الى البقاء هنا بعد . انى أشعر بقرب أياى ،

وأبتغى أن أزور (المدينة المنورة) قبل أن يحيل الموت بينى وبين ذلك .

وحاول الحاج عمر أن يثنيه عن عزمه ، غير أن اصرار الآخر كان

أكيدا فاذعن له . وركن الشيخ ابراهيم ، الى الراحة بصحبة ابن زيد

وخرج الحاج عمر على أحد الابل منفردا يطلب الترويض حول الطائف .

واقترب من جهة صحراوية نائية ، ثم صعد على رابية عالية تشرف على

بيداء شاسعة ممتدة الاطراف وينطبق فيها الافق بعيدا على أقاليم موحشة

خالية ، وتذكر ما حدث لهم على (الهدى) — فارتجف جسده ودبت فى

بدنه القشعريرة ، وكاد يلوى عنان جملة يطلب الرجوع ، غير أن شيئا

صغيرا مطروحا فى قلب الصحراء لفت نظره ، فتعجب أيما عجب عند

ما ميزه مخلوقا يتنسم الحياة .

وأمعن النظر جيدا ، فرأى أنه امرأة ترتدى مئزرا مصرىا تسير

فريدة بين أمواج الصحراء ، باذيال متعثرة وقد أشرفت على الهلاك ،

وكادت تسقط خائرة فاقدة القوى غير أنه أسرع وجهتها بركبه ، وترجل

عن جملة ، وتناولها بين ذراعيه ، وصار يرطب الماء على جبينها ويستحلبه لها في فمها حتى أفاقت من إغمائها . وأجفلت مذعورة من ذلك الغريب الذي لا عهد به لها حالما رآته ، وتماكنت قوتها المفقودة ، ونظرت إليه نظرة شذراء ، ورأت ملابسه المصرية ، فابتسمت قليلا ، ولكنها كتمت ماجاش بخاطرها وصاحت باللغة الريفية المصرية :

— يا للعجب ! . . . اني أمام مواطن من مصر العزيزة في اقليم قفر نائي . . . ونظر إليها الحاج عمر ، وخصها ، فالفأها امرأة تناهز الثلاثين من سنى حياتها ، ذات وجه نضير ، تترقق فيه قوة الشباب ، وتسير في محياها مياه الفتوة ، وقد اكتسبتها شجوية وجهها فتنة وجمالا ، وغلبه ضوء جاذبيتها فغض طرفه أسفا ، وأخيرا تما لك روعه ونظر إليها قائلا :

— يدهشني أن أراك وحيدة في هذا المكان المنعزل .

فنظرت إليه من وراء أهدابها الطويلة الساحرة ، وقالت له :

— لقد كنت مع زوجي وبضع حجاج آخرين في (شبرا) (١) ، وخرجنا نقصد مكة وماكدنا نضرب في الصحراء حتى خرجت علينا إحدى فرق قبيلة (الاهبة) المشهورة بالغدر والخيانة ، فدافع عنا من يصحبنا من الاعراب ولكن كان ذلك دون جدوى فتمنا استولت على كل ما كان معنا من المؤونة ، وتفرقنا أيدي سبأ في البادية ولسوء حظي لم يصحبني أحد بل نجأ كل بنفسه ، حتى زوجي تركني وأسرع راكنا الى الفرار ، وكنت ألقى حتفي لو لم يرسلك الله الى نجدتي .

ودهش الحاج عمر لدى سماعه قولها ، ونظر الى عرض الصحراء قائلا :

— ومنذ كم حدث ذلك الامر ؟

فتوجست المرأة من لفتته أنه يود امامطاردة القبيلة ، أو لم شعث القافلة

(١) شبرا هي أشهر مصيف في الطائف أنشأها الشريف عبد الله باشا وسماها باسم شبرا ضاحية القاهرة .

فصاحت تقول هالوعة :

— كلا . . كلا . لن يخطر ببالك الذهاب ، لقد أصبحوا بعيدا في بطن الصحراء . . فضلا عن أن الموقعة قد وقعت في ضحى هذا اليوم . وقطع عن الحاج عمر ما كان يفكر فيه عند سماعه ذلك منها ، ونظر اليها قائلا :

— ومن أى بلد في مصر أنت ؟

ونظرت اليه شذرا مرة أخرى من عينيها السوداوين ، وقالت :

— من السنبلالوين أحد أعمال مديرية الدقهلية .

فصرخ الرجل عجباً ، وقد امتزج صياحه بعاطفة الفرح ، وقال لها مشدوها :

— يا لحسن الاتفاق ! نحن أيضا من السنبلالوين . . أنا والشيخ ابراهيم

فبدرت من المرأة صيحة خفيفة مقرونة بالدهشة وقالت :

— الشيخ ابراهيم ولي الله المشهور ؟ . . يا لعجب وبالحسن الصدف !

ولم تمالك من أن هجمت عليه وأمسكت يديه وصاحت :

— إذن أنا في أمن من الهلاك بصحبة مواطني الناسكين حتى لقاء

زوجي في مكة .

وارتعد الحاج عمر تلقاء لمس المرأة له ، وسرى في جسمه ذلك التيار

الجارف ، وطرق قلبه ذلك السيل الذي يدق قلب من حرم من متع المرأة ،

وأخذ صدره يخفق بشدة ، ونظر اليها فجذبته مغناطيسية عينيها وسحرها

القاهر ، ورأى نفسه وحيداً معها في مكان قفر لا رقيب عليه ولا محاسب

وحده الشيطان بأمر ، غير أنه أسرع وكتم عاطفته ، وصاح :

— نعم ياسيدي . . نعم ، والشيخ ابراهيم على مقربة من هنا .

فشددت القبض على يديه ، فامعت عيناه أثر ذلك ببريق غريب ،

وأجهد نفسه مرة أخرى في كبج جهاحه احتراما للأرجاء المقدسة ، وأقل

لأن الوقت لم يحن ، والفرصة مازالت بعيدة ، وقالت له :

— وكيف حال سيدي الشيخ ابراهيم ؟
خجل قليلا ، وقال لها بصوت خفيض مختلط الأسف بنبراته :
— انه في حال يرثى لها من المرض ياسيدتي . . وقد عرفني الطبيب
انه على كثر من حافة حياته . .

فارتعدت أوصالها لما سمعت ، ثم قالت متأنمة مرتاعة :
— يا للهول ! هلا تسرع بن اليه ياسيدي كي أراه . .
وسحبت يداها منه ، وسرطان ماحياها معه تل الجلي ، وبعد قليل
كانا بحضرة الشيخ ابراهيم الذي كان مازال راقدا في فراشه ، واعتدل
في مرقده ، وسمع المرأة تقول له بلهجة النقة :
— إني فاطمة إحدى مواطنكم ، هنا في الاقطار المقدسة سويا . .
كيف حالك الآن ؟

فنظر اليها الرجل بعين أو شك الضعيف أن يلقها ، ثم قال في وهن بين :
— بارك الله في حجك أيتها السيدة ، وغمرك بعنايته ورعايته أينما
سرت ، ورحمك برحمته . . قال هذا وباركها بيده ، ودعا لها من الله ما تسر
من خير الدعاء ، واقترب منه الحاج عمر ، وأخذ يقص عليه كل ما حدث
لها ، فتعجب الشيخ أيما عجب ، وأبدي للرجل أن يستمد للسفر غدا . .
وفي الصباح قامت قافلة من الطائف تقصد مكة ، مكونة من الحاج
عمر ، والشيخ ابراهيم ، وفاطمة المصرية ، وابن زيد (الدليل الاعرابي
الأمين) . وكانت صحبة الشيخ ابراهيم قد بلغت السوأي ، وما كادوا
يصلوا الى منتصف الطريق حتى أشار لهم بالتهدل ، فاسرع اليه الحاج
عمر ، فوجده في حالة انزعج ، وقال له بصوت خافت :

— هانتي الولي بخاني في (العهد) . اذهب الى السنبلاوين واتخذ
مكاني وسر في طريق . ويا باركك الله ، وما كاد يبارك الحاج عمر على
مرأى من فاطمة ، حتى سقط رأسه الى الخلف وقد اسلم الروح الى

خالقها ، وصار جثة هامدة ، فذرف عمر عليه الدموع الحارة ، وصلى عليه صلاة الجنازة ، ودفنه في بقعة مقدسة في البادية . .

الفصل السادس

الميراث

السنبلاوين بلدة ريفية لا بأس بها إذا قارنا بينها وبين القرى المجاورة وهي من أعمال مديرية الدقهلية تقع في مرج اخضر يحيط بها كالزبرجدة الجميلة ، تصفو نفوس سكانها ويسود بينهم الوفاق والتسامح وحسب الخير وطلبت نفوسهم على الكرم - كما اشتهر ذلك عن المصريين اجمع - وقد عرف عنهم الجود في الاعمال ، والتسابق إلى ما ينقي انفسهم من ادران الحياة الفانية . فصاروا يمجدون كل من يكون بينهم على ولاية من الله (شأن سذج العوام) ويخضعون له تبركاً بنفسه الطاهرة ، وتقرباً وزلفى الى الله عز وجل .

وفي صباح اليوم التالى لقدوم الحجاج من الاقطار الحجازية كنت ترى جمعاً من اهل البلدة يحشدون في طرقاتها زرافاتاً ووحداً ياتقصدون الحجاج لينشئوهم على سلامة اوتبتهم ، وتوجه جملة اشخاص الى مأوى الشيخ ابراهيم ولكنهم دهشوا جداً عند ما لم يروه في منزله ، بل خرج اليهم الحاج عمر ، والدموع الحارة تجري منهمرة على وجنتيه ، وتلوح على ملامحه علامة الحزن والاسى ، ولما رأى الناس وما بدا عليهم من الجود كفكف عبراته بمنديل مجال بالسواد وغص بريقه ، ثم اشار لهم ان يصغوا ، وقال لهم :

- الصفيح أيها الرجال ، لقد أردت ألا أقلق عليكم مضجع راحتكم بانبيائكم ذلك الخبر السيء الواقع . لقد أردت ألا أجمعكم في شيخنا الكبير ولي الله ، ولكن هي الظروف التي تضطرنى لان أسقط كلماتي الآن على

رؤوسكم موقع الصاعقة . .

وما أن انتهى من كلامه حتى ضج المكان بالبكاء ، وأخذوا يجهشون
بدمع هتون ، واشتركوا كلهم فيما بينهم بالعويل ، ولكن الحاج عمر أشار
لهم باتخاذ الهدوء قائلاً :

- يسوقني أيها القوم أن أعرفكم أن هذا الوقت ما هو بوقت البكاء
بل حري بكم أن تطلبوا له الرحمة والغفران من الله سبحانه وتعالى ،
حتى تسر روحه وتمناً في مرقدها لكم . .

وما كاد يتم كلامه حتى ضج المكان بأصوات الدعاء ، عالية وخافته
بين ابتهاج وبين استرحام واستغفار تصدر من قلوبهم بصفاء وإخلاص
وعقيدة صادقة في نية سليمة .

يا للمعجب من الحاج عمر ! . . لم يذع موت الشيخ إبراهيم بين عشيرته
توقدومه ! بل أمر المرأة (فاطمة) ألا تنزع أحدا شيئاً مما حدث حتى يأذن
لها ، فاطاعته صاغرة ، ولا سيما لما رأت الشيخ يشبه مكانه ، فوثقت
بهذا الرجل الجديد الذي ورث التولية عن رجل حل به جزء من النبوة ،
وهي بثقتها امرأة ، والمرأة لا عقل لها ، تصدق كل ما يترنل على الأفتدة
صدفاً صدفاً ، وإن كذباً فصدفاً . .

وقد كان الحاج عمر يحبك شراكاً بسياسة خفية لا عهد لأحد بها ،
كانت سياسة لحما الدهاء وسداها المكر ، ولاحتله أمور طارئة ، فاذرف
شيئاً من الدموع بطريقة قل أنها (ميكانيكية) إن لم تكن بدافع الحيلة
وامتلاك نفسه رويداً رويداً ، ثم كف كسف دموعه ونظر إلى القوم قائلاً
بلاهجة مستطلعة :

- حقاً إن انتقاله بجوار الخالق جل وعلا أمر نزل على كل سامع بالالم
والهول ، فيجب علينا الآن أن تنصب الحزن حداداً على فقيدنا الراحل .
وما أن سمعه القوم يقوه برأيه حتى قالوا أحد منهم بالعزم والاهتمام :

— نحن إذن نود أن نقيم فسطاطاً نحى فيه ليلة نذكر فيها شيخنا .
فأخني الحاج عمر رأسه بالايجاب ، وقال يبسم قليلاً : — أجل . . أحيوا
ذكره . أقيموا حفلاً ساهراً يتسابق فيه باقى الذكر الحكيم لروحه الطاهرة .
واستبق الرجال الى الشارع ، وسرعان ما حضرت الاقشة والاعمدة والآلوية
وبعد لحظات قليلة أقيم الفسطاط بهمة لا يعرف اليها المثل ، وبشاط لا يتطرق
اليه الكمال . وحضر مندوب من قبل أولى الأمر ليحضر تركة الشيخ ابراهيم
حتى تضم الى الاملاك الاميرية المناسبة لعدم وجود أهل له أو أقارب ، واعترض
الحاج عمر على ذلك ، وأخبره أنه وريثه الوحيد ، ثم قدم اليه وثيقة من المتمد
المصرى فى الحجاز تثبت شهادة ابن زيد وفاطمة . .

واستحضر الحاج عمر المرأة فاطمة ليكون الاشهاد أوقع ، واستنطقها
المندوب الأمر فأدلت بكل ما رأت وكتب كل ما ظهت به فى وثيقة خاصة ثم
استبصمها تحت قولها وانطلق الى شؤونه .

وألقت فاطمة نظرتها على البيت فوجدته ذا نسق حديث . نغم البناء اذا قورن
الى ماحوله ، وقد حوى الى جدرانها الشيء الكثير من الاثاث المتوسط ،
وخلفه (طامبة) تسحب ماءها من بئر قريبة تلقية فى خزان مصنوع من الصاج ،
ويعد المنزل به فى أنابيب ممتدة على الجدران ، ويحمى هذا المكان سور قليل
الارتفاع ، غرس أعلاه زجاج مفتت وبضع أسلاك شائكة حتى لا يهاجم
بأحد الطوارق . ولم يرث الحاج عمر البيت فحسب ، بل احتاز بضع أراض وبنية
خارج البلدة يمكن أن يستدر منها رزقه الوفير فضلاً عن أرباحه التى يتصيداها
من العامة السذج .

وتحوّلت فاطمة الى النساء ، وركنت اليهن تحدثهن عن لحظات الشيخ ابراهيم
الاخيرة ، وكيف لاقى ربه باسمها ، فلن اليها كلهن ، وأخذن يستزدن من
حديثها الطريف . وبعد قليل تم عقد اجتماع جل أهل البلدة والقرى المجاورة
من رجال ونساء وأولاد ، وانفرد النسوة فى مكان خصص لهن ، ورأى الحاج
عمر ذلك الخضم البشرى الزاخر أمام منزله ، وكلهم خاضعون تحت أمره ،
(الحاج - ٣)

وأصبحوا في دائرة نفوذه ، وصار لهم الحاكم المطلق التصرف في شؤونهم بعد موت الشيخ ابراهيم . ولقد سر - بطبيعة الحال - من تلك المنزلة التي أصابها دون أن يقصدها ، فأشرق وجهه ببسمة خفية ، ورأى أنه في مركز يصدق عليه الارزاق دون أن يحرك لها ساكنا فأمل خيرا ، ووقف منهم موقف الحاكم الا ان الحاكم لا سطوة له الى الحد الذي هو فيه . وما ان راوه ظهر امامهم حتى تدافعوا عنا كبهم فضلا يبنفون التقدم منه والتمبارك ببركته قربانا من الله . زعما باطلا هو ذلك الذي يزعمه أولئك السذج ، اذ يذهبون ان (الاولياء) هم الطريق الذي يصلون به الى الله تعالى حتى يغفر لهم خطاياهم ، ويرحمهم ، ويفهمهم بعفوه . وامثالهم في الدنيا كثير ، ولا يوجد ذلك في الدين الاسلامي خصب : بل ايضا لدى المسيحيين واليهود حتى ديني بوذا والبراهمة والديانات الوثنية الأخرى تطوى مثل ذلك : فمقاليبتهم السخيفة تسول لهم اتخاذ رجل بشري مثلهم لافرق بينه وبينهم للتقرب من الذات جل جلاله او من المعبود الذي يعبدونه . . ليس هناك سبيل بين الانسان وربه سوى العبادة ، فمن احلها من نفسه اولا فقد اقام الدين ، ومن هدمها فقد هدم الدين ، كما نوه بذلك رسول الله ﷺ ، اما طبقة (الاولياء والمشايع والتقليديين) فليسوا طريق الله لعبد يحصلون له على الرحمة منه ، ومن عرض بذلك منهم فما هو الا دجال يحبك ابحولته حول من يصور له ذلك ينبغي منه عطية ، وما ذلك القوم الا احلاس الخسة والنذالة ، واعلام الكذب والافتراء محبتهم كيد ، وصحبته صيد ، وذعوتهم لمرامهم شرك ومكيدة .

نحن لا نسكر منهم بذلك حق تلك الفئة الطاهرة الناصكة المقربة الى الله ، الألي لا تبغى سوى السكون الى العبادة والانتقطاع عن الحياة ومباهاوزيناتها . لا يطلبون إلا ما يتبلغون به فقط عونا على العيش .

وأشار الحاج عمر للقوم فسكنفوا عن تقدمهم واتخذوا أمكنتهم وصاحو كلهم بصوت واحد تدفق مع الرياح إلى أذنيه عاليا ، يبايمونه على الأوليا مكاذ الشيخ ابراهيم سواه . ودخل الجدل إلى نفسه ، ولكنه كتم عاطفته ، وتذكر مولاه في تلك الآونة فتصنع الأسف ، وبدا عليه الحزن والألم ، وطفرت

عينيه الدموع ، ولم يتمالك الا أن تقدم منهم ، وأشار اليهم بالهدوء ، فصمتوا حتى بان كأن على رؤوسهم الطير وارتجل فيهم قوله بنبرات خلافة أسرت حواسهم : — أيها الناس ، صهصه ، أن لي عليكم حق الولاية وحرمة الموعظة ، لا يتمنى الا من عصى ربه . مات شيخنا بين ذراعي ، فأنا ولي عهده على هذه البلدة مكانه أخلفني ، وعلى تركاته قلبي . . لا ريب أنكم تشعرون كما أشعر أنا بذلك الفراغ الذي أحدثه رحيله عنا ، وبشهد الله أني بالبتون باكيه الى يوم الاقيه فيه ، حتى أؤدي بعض ما لي من الواجب نحوه .

يا قومى . ان النفاقى فى العبادة ليس وحده يعظم لكم حسن الختام بل هناك الطريق الى الله ، هناك الطريق الى تنقية الأذلام الماضية والغفران عنها ، ويكون ذلك من (خليفة) شيخكم الراحل . .

ولي كلمة أحب أن أختتم بها مقالى ، وهي ألا اذكروا الشيد فى صلواتكم وابتغوا له الغفران والمرحمة من الله سبحانه وتعالى ، وابتهلوا لروحه وادعوا لأنفسكم وذوى قرباكم . واسلكوا سبيل الصديق فى القول . والاخلاص فى العمل ، تسبحوا فى حياتكم ، فكل من سار على الدرب وصل . وفى أى يوم تاخذنكم فى أمر لكم شائبة فاني هنا فى خدمتكم أضع أسمى ، ولست أريد غير ثقتكم : ثقتكم العمياء ، ولترون ما يقدره الله بعد ، انه هو الشدير العليم .

وما ان اتم كلامه حتى ارتفع صوت الحاضرين ابتها لا الله بالمغفرة للفقيه ودعاء الحاج عمر . وقد اتجهوا به . وبسلاسة الفاظه . ومثانة عباراته الحكيمة ، فازدادت ثقتهم به فى قلوبهم عن ذى قبل .

وشاهدوه يتقدم منهم ويباركهم بيده شخصاً شخصاً . ويدعوه لهم بالنجاح فى معترك حياتهم ، وعم مستبشرين مقتبطين لتولى الحاج عمر (الولاية) مكان الشيخ ابراهيم ، فحمدوا ربهم أن لم يتولى ذو بهتان عليهم .

الفصل السابع — القوس قزح المخنوق

انتضت حنة الحداد . وأقفر البيت على وارثه ، فأخذ الى غرفة جانبية وأخذ يفكر فى أمره : لقد صبر ثمانى عشرة عاماً فى خدمة الشيخ ابراهيم ، وكثيراً ما تطرق الى نفسه الملل من تلك العيشة الهادئة التى لا طائل تحتها ،

ولكنه كان يذعن عند موالاته الرجل له بأحاديث لطيفة ، وأمر طريفة .
وقد حل عليه وهو لا يملك شروى ثبير ، وهاند آل اليه كل ما كان الشيخ
يمتلكه ، وعند ما جال برأسه هذا الخاطر ابتسم سرورا ، وسرعان ما أتت على
دموعه التي كان يذرفها أمام الناس منذ حين - سحابة صيف مالمبث أن
أتي عليها اسان الحرارة ، فانتشعت عن أباهييج وأفاريج .

وطرق قلبه في تلكم اللحظات ذلك العامل الجنسي الذي حرم منه طويلا ،
فأفاق عليه هذا الأمر مضجع راحته وسولت له نفسه أموراً سرعان ما أبعدتها
عن فكره لبعدها عن حكم المؤلف .

ودارت الشمس في فلكها مراراً قليلة حل بعدها فصل الشتاء بيرده القارس
وانتشرت السحب في كل مكان كتلا كتلا ، كالأمواج سابحة على متن الريح ،
محملة بماء الامطار . وصارت تغد من كل جانب وصبوا الهواء يحركها بقدرته
تعالى ، وما كادت تحتل جو البلدة حتى أنت تحت ثقلها فابتدأ سقوط الامطار
الهاطلة ينساب على شوارع المدينة وأسطح منازلها . .

وأقمرت الشوارع من المارة ، وأغلقت المناجر بعد أن باع البدلون كياتا
كثيرة مما لديهم من الفحم للناس ، لاندواء عن البرد وطالب في الدفء والحماية .
ولمعت الارض بما فوقها من الماء ، وسكنت الأصوات ، وهذأت البلدة ،
وخيم عليها صفيار السكون البشري ، ولم يبق الا ثورة الطبيعة من بروق وامضة
الى رعود قاصفة . . وبعد فترة وجيزة تحركت أشباح في بضعة بيوت متقاربة ،
وفتحت الابواب ، وخرجت الى الشوارع تسير في ظلال الجدران تحتمى بها
من المياه الدافقة : لقد كانت أشخاصاً تذكروا الحاج عمر في تلك الاونة القريرة
فعر عليهم أن ينعموا بالدفء وخدم بينا هو في رعشة الشتاء يعاني البرودة
وأهوالها تحت غطائه الرطب ، فحملوا اليه : كل في غير علم بنية الآخرين :
شما يأنس الدفء منه . وطرقوا بابه فخرج اليهم باسما يفرك راحتيه جذلا
وحبورا ، وتمعنوا حاله فأنفوه كالمشعب من القيظ ، لا تأثير عليه من الحال
الجوية ، وتقدموا منه فما ان استبان مامعهم حتى انتجدهم سرورا .
وأشار لهم بوضع عطياتهم على اريكة بالية في الفناء المسقف ، وخرجوا

وهم واثقين عن مقدرة الرجل الروحية ، التي عشناها من استأذه ، ودخل
بعد ان شيعهم بنظرة خفية قل انها تنطوي على معاني الازدراء والتهكم .
وانقشعت السماء عن سحبها ، وصفا الجو زاهيا ، وخرج الصبيان والغلمان
في الصباح الى الشوارع يصنعون طرقا بين الاوحال إلى بيوتهم وما أن حان وقت
المصر حتى كانت الشمس قد أتت على بعض مافي سبل البلدة من ماء الأمس .
ودهش الأهليون لما رأوا ان الحاج عمر ينطلق في سبيله بلا وعي ، يرتل
هائسا الأسماء الحسنى ، فتبعه بضعة من القوم صاروا يتكاثرون كلما طال بهم
السير ، وبعد قليل رأوا أنفسهم خلف الرجل في ظاهر البلدة وقد ضربت
الحقول النظيرة أمامهم لطاقتها على امتداد الأفق .

ونظروا إلى الرجل ، فألقوه يتقدم من مصلى صغير أقيم على شاطئ ترعة
جارية ، وأقام فيها فرض وقته ، وقد أئتمه كثير من الاهلين .

وما كاد يخرج من المصلى حتى تقاعس وجهه بدافع خفي ، ونظر الى السحاب
ولم يتقدم في سيره كثيرا حتى رآه الحشد وقد رفع يديه نحو السماء . وخر
لوقته ساجدا على أديم الارض ، صامتا لا ينبث بينت شفة خاطعا خاشعا ، بدعوع
تنهمر سيللا على وجنتيه . . . وعجب الناس من أمره جدا ، وتساء لوا عن ماهية
تلك العبادة التي صادفته في نفسه بعد الفراغ من أداء الفرض ، وحاروا في ذلك
أثما حيرة لشذوذ ما يأتية على مرأى منهم .

وتوجس نفر قليل منهم خيفة مما يرى إليه ، ورموه بالمبالغة ، وصرخوا
برأيهم لما تبقي منهم ، غير أن أولاء كان إخلاصهم له قد سرى في عروقهم ،
واختلط في دهم ، فكذبوا ما ذهب اليه ذلك النفر ، ودافعوا عن الرجل بشم
واباء ، وهم في غفلة عن أمرهم وفي جهل من حالهم .

وأمسكوا بشبل الصمت عند ما شاهدوه ينهض من سجدة ، وانتظروا
قليلا يودون الوقوف على ما سيفعل ، فوجدوه يتقدم منهم رويدا رويدا
نخافوا أن يكونوا قد أثروا غضبه للحاقهم به ، فهموا بالفرار ، غير انه اشار
لهم ان تستتب السكينة والطمأنينة فيما بينهم .

وكأنه سلط عليهم قوة سحرية خارقة ، فوقفوا راغمين منيعين لأمره

وتقدم منهم حتى صار على رأسهم ، وطلع عليهم بصوت لين يسيل رقة جذب حواسهم اليه من شنائها ، وصرف افكارهم مما حصرتها من مختلف الاماني ، وانساب فيهم قوله ، ينفى ودهم ويظلمهم امره :

- أيها القوم : لا تخشوا شيئا ، فإنا إله جارمكم المختار من قبل الله ، أسهر عليكم سهر الالام على فلذتها ، وأبذل أنفس مآمتلك الازد منكم : فلا غرو إذ أتم عشيرتي : هبأت اليكم من عالم الغيب ، ودرجت بينكم بيا لطيا ، لا أعرف لي أبا أنعم بشفقته ورعايته ، كما أجعل أما أجذل بحنانها ، وتطر على ألوانها من أفرادها وسرورها ، عديم أهل أثوى اليهم ، وأتلذذ بقربهم .

ولكن اعتاضني الله بكم خير أهل وأحسن قرب . فمن له مثل ما غمرني ؟ . أتم جميعا آبائي وأجدائي . رجالا ونساء ، أطفالا وأولادى وبناتي ، والبلدة كلها بيتي . . . حقا انها نعمتنا أشكره عليها سبحانه وتعالى . وما دامت تربطني بكم تلك الصلة ، فأنهى انيكم أنه من به منكم شك في أمرى فليتخذ الردة إلى البليدة ولا يكاف نفسه ذاء الاصفاء إلى ، والله ولي أمرى .

وبالغ تأثير دنايهم أشده فظنوا في صمت بليغ ، وخبيت عليهم السكينة بردائها ، وكنت لا تسمع منهم الا زفوات تنفهمهم ، ولا ترى الا عاطفة الاستطلاع مرسمة على وجوههم ، واستطارد بصوت أجش :

- إن صحتكم لدليل محسوس على تتبعي ، فيالكم من كرام برة ، تعارحون الفلال ، وتبانون على ما يهدلكم سبيل التقوى والفلاح .

أي عذيرتي : أنابكم الساعة بما لم ينابكم بمثله خبير ، فلقد اطلمت على قاييل مما في المستقبل القريب ، فهاجت أن يوم غد مهول قطير . . . يوم فيه لا تملك نفس من الطول لها شيئا . وصمت قليلا ، وأهمن في القوم ، فراحهم عند كلامه صاغين ، فتابع قوله بنغمة رقيقة :

- لكم غدا ما ينتظركم في هذا المكان ، مما يبرهن لكم عن منزلتي لديه سبحانه وتعالى : فلتخرجوا الى هنا ولن يصحبكم الضرع قط ، إن هي الا غيمة قائمة تضرب أستارها اليوم كاملا تتخللها عواصف هادئة .

ثم لا أخبركم عن فاهور قوس قزح اشتاء ، وسيكون مذنوقا بأيدي القدرة

جلت وعات مكاتها . . هذا حديثي معكم ، ومن يك منكم في ريب من أبري
فوعدي معه نداة في هذا المكان ، والسلام .

وتكلم بعض القوم بصوت مختنق دهشة مما سمعوا ، يؤيدونه في كل ما قال .
بالسداجة ذلك الجمهور الذي يتتبع سخافات رجل ألقته المقادير في سبيلهم
فراح يرسم خطاه وحبائله التي استمدها من شيطان الآثام يفرور بهم أيما
غرور . ولم يكونوا على علم بما تنطوي عليه نفسه من الأسرار والأحاجي ،
فصدقوا كل ما أدلى به قبل أن يحين أوان اثبات برهانه على صدق ما قال .
يالهم من جهلاء ! ظنوا به من مقرب إلى الله ، وما أبعد عن طفل ساذج برى ،
ولم يدروا أنه يحل بهم . . لقد عرف بوساطة الفلك الذي يجيده ماسيحدث
في غده من التقلبات الجوية ، فلفق لهم الأمر في صيغة أتعجيب العبادة . وأتى
الغد ، وخرج الناس من البلدة رغم سوء حال الجو ، وما أن وصلوا إلى المكان
المعلوم حتى وافهم الحاج عمر إلى مقرهم ، وبعد هنيهة اشتدت حالة الجو سوءاً
وتكدس بسحب كثيفة ، واشتد هبوب الرياح ، وضرب القمام على رؤوسهم
رويدا رويدا ، ولكن لم يرهم ذلك إزاء شغفهم في رؤية نبوءة الرجل .

وطار على هاماتهم الشوق والتلف ، غير مباليين بما يدور حولهم ، واجتذب
أنظارهم على نجاة خطذي ألوان خفيفة عند الأفق ، وعماليل بدأ يظهر في جلاء
ووضوح ، حتى ظهر تماما . . . وكان ذلك هو القوس قزح . وانتشرت الدمدة
والهيممة بين الناس ، ونجاة أمسكوا بحبل الصمت عندما شاهدوا أصبح يد هائلة
تفعل بأصابعها أجزاء متفرقة من ذلك القوس قزح .

وسبح القول بحمد ربهم ، وأخذوا يتلون ما تيسر من الآيات البينات ،
ولم يتألموا أن خروا سجدا لله يطالبون منه الرحمة والمغفرة .

الفصل الثامن — ذات الزوجين

قال الحاج عمر حقوة كبرى لدى أهل البلدة لما شاهدوه من صدق نبوءة
فلقبوه بالولي الكبير صاحب المعجزات (والكرامات) ، وراح الجمهور الساذج
يضرب في نواحي تلك الأفكار السخيفة في المجالس الخاصة والعامة ماشاءت
له الأحداث ، وكيف مهدت له الظروف .

وشاع ذكر الرجل في آفاق البلدة وقراها ، مما سهل له الأرزاق ودر عليه الخيرات ، وأخذ الفلاحون بعد ذلك يتسابقون صباح كل يوم في إرسال ما يتسنى لهم من خير حاصلات الريف من لبن وجبن وزبد مع الصبايا الريفيات (إليه) يدور في خدمهم أن السابق في ذلك هو الرابع ورفاقه هم الخامسين .

وفي يوم الجمعة الأول لذلك ، احتشدت الجماهير الغفيرة أمام منزل الحاج عمر . أمته من مختلف النواحي والجهات ، وقد تحمل كل شخص وعائلته مشاق السفر بين الحقول على متون الأتُن ، يطلبون استشارته في أمورهم الحيوية ، أو في أمراض نسائهم ، أو لحصول بركات منه . .

ونجح الرجل نجاحا يحسد عليه ، ولا غرو في ذلك ، فله عينين مستشفتين يستطلع بهما أدق أسرار القلوب ، وله نظرة لا يستردها خائبة ، بل مصحوبة بما يسهل له السير في طريق الحياة (الأعوج) باسم بهتان يتخذ دستارا لاستدرار مطامعه الاثعمية فضلا عن الوصمة السوداء التي يصم بها الدين الحنيف وتناقلت أفعاله الحسنة السنة العامة ، وما أسرهها من السنة تنقل الأخبار أنشط من البرق ، وانتشر نجاحه في سائر أرجاء المقاطعة والخافقين ، فصار الناس يأمنونه من كل حذب وصوب ، لا يتوانون في بذل أفدح ما يطلب منهم مادامت النتيجة مقابلة هذا الرجل الذي دانت له جيوبهم عن اغتباط وسرور وقد احتل من نفوسهم في طرفة عين مكانة أرفع من تلك التي نالها عن جدارة واستحقاق مولاه الشيخ ابراهيم استاذہ الراحل السابق .

وفي منتهى اليوم أعلنهم أنه يطلب الراحة ، فأخذوا ينصرفون زرافاتا ووحدا نايمطرون شكرهم وثناءهم على ذلك الرجل الذي باركهم وقابلهم بالبشاشة واللين ، وأوشك أن يغلق الباب لولا أن دفعه بلطف ثلاث نسوة لسكل منهن جاذبية تسلب الباب الرجال ، ونظر الحاج عمر إليهن ، فوجد بينهن المرأة فاطمة تفوق الاثنتين بهاء وجمالا ، ولها وجه ازدادت فتنة تقاطيعه عما كانت معه في الحجاز ، وابتمس لهن قائلا :

— ما الذي أخركن إلى هذا الوقت ؟ لقد انصرف الأهلين .

فأجابت فاطمة برقة ونعومة نهت حواس الحاج عمر :

— نحن نعلم ذلك ، ونريد ذلك حتى لا يقلقنا أحد فتكون الزيارة أحمق أثرا .
وابتسم الرجل بسمة قصيرة قائلا :

— على الرحب والسعة في غرفة (الحريم) ، ولو أن ميعاد راحتي قد آن .
وتقدمه من إلى الحجرة الخاصة ، وجلسن معه يتجاذبن أطراف الحديث ودار
سمرهن لحاة حول الحياة المنزلية والزوجية ، وأخذت المرأتين تبديان سرورهما
واغتبا ما لهما تلك الحياة الجميلة . فصارتا تطلبان فيها المدح ماشاء لهما الحديث
وأنت فاطمة عن صدر مندمل ، وتأوهت آهة قصيرة ، وشردت قليلا ، واكتمها
جمعت شواردها ، ونظرت إليهما في ألم وغضاضة ، وقالت :

— إن حياتي سارة وجميلة ، وفيها كل ما يبهج نفسي . ولكن بالأسف ،
فكل جميل لا يتم إذ أني قد تزوجت منذ أربع أعوام ، وبالرغم من طول هذه
المدة ، فاني لم ألد لزوجي طفلا . . وأخشى أن يسأمني لذلك ، فتجذبه امرأة
أخرى عنى بتلك الوسيلة . فاعتدل الحاج عمر في مقعده ثم أغرق في تفكير قليل
ومالبث أن رفع إليها بصره وقال : — لا تقلقي بهذا الشأن . سأسهل لك غايتك
وستنالين أمنيته قريباً إن شاء الله . ولما سمعت ما فاه به لم تمالك أن قامت
وركعت على ركبتيها ، وقالت له متوسلة — بربك ياسيدي أفصح لي عن خطتك
أكون خادمتك مدى الدهر . فأمر لها وبسمة تشرق من وجهه قائلا :

— دعيني أفكر قليلاً في الأمر . لا يكون ذلك الآن ، إذ أن إعداد
الوصف يستغرق زمناً . وانتهت الزيارة بعد أن بارك السيدتين ، وأوعده فاطمة
أن تأتيه فيما بعد كي يعمل على تحقيق أمنيته . ومر يومان ووافته المرأة عند
غروب اليوم الثالث ، وقد ضرب الشفق بقعته في الأفاق ، فاكسب الأتوار
حمرة قانية ، والشمس تدلف إلى المغيب خلف حجابها .

وأقفر منزل الحاج عمر من الزائرين ، ولم يبق به سوى فاطمة معه ، واتي
إليها فأسرعت له قائلة : — لقد أتيت اليك يا عمها أبغى منك أمنيته . فهل
اعددتها لي ؟ فاطرق قليلا ، وأمعن النظر في الخيال ، ثم صاح بجذل دفعية
واحدة : — أجل يا عزيزتي إن كل شيء على ما يرام .

فابتسمت عن أسنان لؤلؤية تقطر من بينها حلاوة الشهد ، ورفعت اليه

عیشان سوداوتان ذاتا اهداب طويلة ، مما سحر لهما الرجل في مكانه ، واستحالت
نفسه التي هذبها الشيخ ابراهيم ، إلى الحالة الاولى ، بل اشد وانكى مما
كانت ، . لقد وجد نفسه اخيرا على انفراد مع امرأة بلغت كمال الانوثة ، وغاية
في نضوجها التام ، وهو رجل شرير بطبيعته ، فضلا عن انه لم يتذوق معنى
سمادة الاتصال الجنسي من قبل . ونظر اليها فرأى ثغرها ينتر عن ابتسامة
دائمة ، فابتسم لها ، ورأى ان الفرصة سانحة لاستغلالها في تحقيق مأربه ،
فتقدم منها وقال لها مغريا : — ألك تتبعى الى غرفتي حتى اهبيء لك أعشابا طبية
تتناولينها بمعرفتي ؟ . فأجابت ضاحكة مستبشرة : .

— ومتى قيل لك يا مولاي انى افعل كما اشاء ؟ ، مر ، لطاع .

قالت هذا وسارت خلفه ودخات حجرتة الخصوصية ، وكان بها فراشا
مريحا ، وبضع مقاعد وارانك وفي الوسط منضدة متوسطة : — اشياء كلها
هدايا وميراث — وكان قد وضع على الأرض موقدا كبيرا ، فتقدم منه واضرم
فيه نارا ، ثم التي فيه ذايلا من (المصطكي) وبضع عقاقير خاصة من لغافات
يخفف ظمئها معه ، وامر المرأة ان تتقدم وتتناذه كنفا من تلك (المبخرة) العجيبة .
واذعنت طاطمة لأمره ، وما كادت تتخذ مجاسها منها حتى شمت رائحة
لذيذة استقرت في خياشيمها ، وانتقلت من عالم الحقيقة الى عالم آخر . . كان
عالم الاحلام والأمانى .

رأت نفسها تسير في روضة غناء ، وقد ارتدت حريرا ناصعا فبدت كزهرة
أثيلة ، وطرحت جديلتى شعرها على صدرها ، وجمعت ما تبقى منه على رأسها
عنديل بنفسجى . وسارت قليلا ، ثم ظابت امرأة اخرى ترتدى ملابس أنيقة
ولكنها اقل قيمة من تلك التي ارتدتها ، وكانت تحمل طفلا جميلا ، غارقا في
لغائفه ، فابتسمت ابتسامة خلابة تنم عما بها من السرور ، وأخذت تداعبه
وتدله ، ثم تناووته منها ، وضمته إلى صدرها ضمة تنم عن كل معاني العطف
الأموى ، والدب الشديد . ولم تنالك من فرط عاطفتها الشديدة ان اخرجت
ثديها من نطاق ثيابها والقمته فم الطفل ، واخذ هذا يمتصه بشراهة تدل على
سغبه ، فمالت عليه بدافع الجنان ، وقبلته قبلة طويلة اودعتها كل ما فيها من الحب .

واستيقظت من أحلامها فجأة ، فهاها ما كان . . . رأت أن القبلة الطويلة التي أودعتها فم الطفل لم تكن له ، بل كانت قبلة قوية انطبقت على فم الحاج عمر ، مما (دعاه) لأن يجيبها عنها فتناولها بين أحضانها .

وارتعبت لهول ما رأت ، ولم تدرك أنه ما وقع لها بالضبط ، كما أنها لم تدرك كيف تدافع عن نفسها ، ولما رأت نفسها طليقة ، أخفت وجهها بين يديها وأجهشت في بكاء عميق . وتقدم منها الحاج عمر ، وطيب خاطرها قائلاً :

— يالك من طفلة ! . . ألا تبغين الولد ؟ . أنا . . أنا الحاج عمر : أطلبك زوجة وقتية لى . . ورفعت يديها ، وانظرت إليه ، فرأته يعمن في حداثتها بنظرة حادة بددت منها عوازل العزم والقوة ، وأصبحت خاطرة ، وشعرت بالتعب يدب إلى جسمها رويداً رويداً ، فجمالت جأشها قليلاً ، وطرق فكرها الساذج أنه ذلك الرجل الهائل ذو المقدرة السرية في فعل كل شيء ، فلم تتوان أن أسرع وألقت نفسها بين ذراعيه .

الفصل التاسع — الجرائم الخفية

في صباح أحد الأيام الصافية ، وقد كان الجو عالياً ، والسماء راتقة الأديم وقد خيم الهدوء على البلدة كالمعتاد ، وكل يرى اتباهه لأعماله .

وفي قسم بوليس البلدة ، أتى الضابط المنوط بمهمته واتخذ متعده أمام مكتبه متكاسلاً ، وبعد أن نظر في ساعته قال للجندى الذى على المكتب الصغير المقابل له : — مارأيك فى أن البسلة هادئة ؟ . لم يحدث فيها ما يجعل بعض النقود تضاف إلى الخزينة . فضحك الجندى ببشاشة لفكاهة ضابطة ، وصاح قائلاً : — بل دعهم ياسيدى فى سكونهم إلى الأبد حتى نال تسطنا من الراحة ، ولم يكذبتم جملته حتى انطلق فلاح إلى وسط الغرفة كالقنبلة ، وكانت حاله تنم على الفزع والرعب وملابسه الزرقاء رثة أوشكت أن تبلى ، والاحوال والاقذار عالقة بساقيه ويديه ، وصارت نظراته تنتقل من الجندى إلى الضابط وصاح بهول وارتباك : — سيدى . . سيدى البك . . جريمة . . جريمة . . هناك . . عثرت عليها ، فاستدال الضابط إليه بكلماته عند ما سمع طرف كلامه ووجه نحوه كل اهتمامه ، وراح يطمئنه قائلاً :

— امتلاك روعك . لا تخش شيئا ، فأنت هنا في دار الشرطة . تكلم ماذا حدث ؟ . وغص الرجل بحلقه ، وتمالك شوارده بعنف ، ثم صاح وهو ينتفض فرقا : — في حقتي قطعة أرض مهمة تقع جانب الطريق ، وكنت في غنى عنها لعدم احتياجي اليها فأخذنا منها مكانا للراحة ، وطرأت على أخيراً عوامل جعلتني أغير فكري : فوطدت العزم على غرس تلك البقعة نظراً لاحتياجي اليها . واليوم تناوات معولي وسرت أبغى عزقها ، ولكنني ما كدت أقلب قليلا من ثراها حتى اشتبك سن المعول بشيء رخو ، فأسرعت اليه ، وما كدت أتبينه حتى هلمت له ، وداخنتي الخوف ، وخشيت على نفسي جدا . . . فقد كانت جثة امرأة عارية الشياح ساكنة سكون الابد ، ولم أتمالك نفسي ، ولم يهدأ روعي الا عند ما صرت أمامكم .

واهتم الضابط بهذه القضية الجديدة ، فوضع القلم على كسب من أوراقه وشبك يديه عن عزم ، وأشار الى الجندي بكتابة كل ما قاله الفلاح في محضر ذيله ببصمة أبيهامه ، وتوجه مع بضعة آخرين يعاينون الجثة ، فما كادوا يشاهدون مكانها حتى أخذتهم القشعريرة لهول ما شاهدوا . . . رأوا جثة لامرأة في ريعان العبا ، وقد بدأ الانحلال يدب فيها شيئا فشيئا ، مما يدل على أنها دفنت في هذا المكان منذ زمن ليس بالقصير . واستدعى الضابط الرجل الريفي وقال له محققا : — ألا تعرف هذه المرأة أيها الرجل ؟

فأجابه الفلاح ووجهه تمتعنا : — كلا ياسيدي . إني أراها الآن فقط ولأول مرة في حياتي . . . وسأله ثانية وهو يمين النظر في عمل الطبيب الشرعي : — ألم تشاهد ، أو أي من عائلتك ، غريبا على هذا المكان في المدة الاخيرة ؟ أي مثلا ألم تشموا رائحة كريهة لاعهد نخياشيمكم بعثلها ؟ . . .

فامعن الرجل قليلا يتذكر ، وصاح قائلا :

— كلا . كلا ياسيدي . إني لم أطرق هذا المكان منذ بعيد ، فضلا عن اققرار الطريق الموحش الملاصق له . وكل آل بيتي والناس يعامون رهبة ذلك المكان ويذهبون الى أنه مسكون بالشياطين ، فترك مهمها فقرا ، وصار لا يجرأ أحد على الدنو منه حتى في بعض أوقات اليوم عند ما تكون

الشمس في رابعة النهار وصمت قليلا ، ثم مسح العرق البارد الذي تصبب على جبينه ، واستنطرد : - واضطرت ان ازرع تلك القطعة لاضطراري لها ، ولكني ما كدت اضرب قليلا بالمعول حتى جذب الى حافته جريمة هائلة ترتعب من هولها الابدان .

وتحول الضابط الى الطبيب وتناول تقريره ، وقرأه فعلم ان هذه المرأة قد قتلت ودفنت منذ أربعة أيام ، وفي هذه اللحظة أخذ سمعه أصوات ناس قادمين وما أن وصلوا إلى مكان الجثة وتعرفوا إلى صاحبته حتى علا صياحهم وارتفع بكاءؤهم وعويلهم ، وأخذ نساؤهم يلطمن ويندن ، وقد ضجت الأرجاء بولولة الجميع ، والتفت الضابط إلى شاب ضمن ذلك الحشد ، وأشار له فلما اقترب سأله قائلاً : - ما أمركم أيها القوم وهذه المرأة ؟

فقال الشاب وقد اغرورقت عينيه بدموع الحزن والقهر :
- هذي زوجة أخى ياسيدي ولست أدري من قتلها ، ولائى سبب ؟ ..
مع أننا في وئام وخير مع كل الاهلين ، ولا توجد هناك ضغائن بيننا وأحد قط .
فدهش الضابط للأمر وسأله : - ومنذ كم يوم غابت عنكم ؟ ...
فقال الشاب (واسمه حمدي) بعد أن أمعن قليلا :

- منذ ستة أيام ياسيدي . . لقد خرجت في حاجة لنفسها لم تطلع أحدا عليها ، وكانت تصحب كل حليها وبعض ما ادخرته من المال ، ولما طال غيابها ظننا أنها فرت مع عشيق لها . وفكر الضابط قليلا في الأمر وقد أدرك أسباب الجريمة ، ثم قال : - لماذا لم تبلغوا دار الشرطة عن غيابها ؟ ..
فنظر اليه الشاب شذرا وقال :

- لقد اكتفت العائلة بذهابها الى الحاج عمر اذ ربما يكشف لنا عن مكانها فرأيناها عازما على السفر الى ممنود ، وميعاد رجوعه ظهيرة اليوم . . فآلينا على انفسنا انتظاره حتى رجوعه . فضحك الضابط ضحكة ازدراء رغم دقة الموقف وقال غيظاً : - وما ل هذا المتعبد ومهنة الشرطة ! . حقا إنكم لقوم ذو عقلية مظلمة محدودة لا تدرون ما فيه النفع لصالحكم ، وتقادون انقياد الأعمى إلى دجال لا يعرف ماضى حياته ، فيكشف عن المستقبل وأسراره . .

وحررت كل أقوال الشاب (حمدي) وعائلته في وثيقة ، وأمر الطبيب الشرعي حمل الجثة لتشميخها ، ثم يستلمها ذويها بعد ذلك ، وبينما الضابط يهيم بمغادرة المكان إذ أتى إليه فلاح آخر ، وكان في حالة تشبه الهذيان ، وأخذ يضطرب كريشه في مهب الرياح ، ولم يتطرق إليه الاطمئنان الا عند مارأي الضابط ، فصاح فيه هذا بعنف وقسوة :

— ماوراءك ايها الرجل ؟ . افصح بالامر والا فارحل ودعنا نوفر مؤونة الاصغاء اليك ، فقال الرجل في ارتباك : — جريمة ياسيدي . جثة لامرأة وجدت في حقل . فدهش الضابط لقول الرجل ، ونظر الى الطبيب الشرعي فرآه يهيم بركوب سيارته للانصراف ، نصاح به مسرعا ينبغي استبقائه :

— مهلا . . مهلا . . هناك جريمة أخرى نود إتمامها . .

وعدل الطبيب عن الركوب ، واصطحب الضابط والجندي والرجل ، ولما وصلوا الى مكان الجثة تبينوا أنها لم تقتل الا مساء الامس . وتعرف الرجل على ذويها ، وحررت حالات وجودها عارية في وضع ترتعد له الأبدان فرقا ، وسجلت شهادات أقاربها . وأخيراً حولت إلى التشميخ ، وفي أثناء رجوع الضابط الى مقره التفت اليه الجندي ، وقال له في دعاة وفكاهة :

— مارأيك في أن البلدة هادئة ، لم يحدث فيها مايجعل بعض النقود تضاف الى الخزينة ؟ .

الفصل العاشر — التفضيل

دخلت فاطمة منزل الحاج عمر ، وقد اتخذت المعاذير لكثرة ترددها عليه : أنها تقوم له ببعض ما يحتاجه ، مما لا قبل له به في حياته الطويلة الخاصة بمختلف الوقائع ، وقابله في غرفته الخاصة وما كادت تراه حتى أسرعته اليه وارتقت في أحضانه ، وقبلته قبلة طويلة تنم عما يسكنه له صدرها من عوامل الحب والغرام وأجابها عن فعلها فشدتها إلى صدره يضمها ، ثم قالت له بعد أن دفعته قليلا بلطف :

— سفر أسعيداً وعوداً حميداً يا عزيزي . عل رحلتك الى محمود اقترنت بوسائل النجاح ؟ . فنظر اليها الرجل نظرة خاصة ، وابتسم ابتسامة صفراوية ، وقال لها :

— أني نلت كل ماأرعى اليه من هذا السفر ، وأحمد الله جزيلاً على كل ذلك النجاح

الذى حمل اسمى الى الاكافق البعيدة ، فبرز أوتار قلوب الناس وأخذ منهم تأثيره عليهم
فأخذ يجذبهم الى جذب حجر المغناطيس للحديد . ولولا اصدارى مواعيد أوقات
خاصة للزيارة ما كنت أتنعم بقربك في هذه اللحظة السعيدة .

فرنت اليه المرأة بنظرها رنوة طويلة وداعبت وجهه بيدها وقالت :
— بشراك يا حبيبى بما نلت ! . أهنتك من كل قلبي على هذا الفوز العظيم الذى
أحرزته . وأطرق الرجل ببصره الى الارض بمن فى أموره الخاصة . لقد لعبت
بجبينه الغضون أخيراً ، وصار مقتطبا الوجه معقود الاسارى ، لا تبدو عليه بادرة
الانشراح الا حين وجود فاطمة الى جانبه ، فانها تسرى عنه بخفتها ورشاقة عودها ،
وينسى بجانبها المتاعب الطارئة وآلام النفس المعذبة . كيف لا وهى ابنة حواء تلمقت
عن أمها أسرار باذيتها ، وأخذت عنها أساليب قيادتها للرجل ، واغراها له
بأعوادها كتبها من الدلال ، وتسيطر عليه ببرقش حسننها وجمالها . وأما فى ساعات
وحده فيركن الى الهم يتخذها أليفه ، وينزع الى وهاد الالم والشعور بالحقيقة فى
فترات متقطعة يطلب امتهاها . على أن كل ذلك لا يجدى الى فؤاده سبيل الا حين تأتية
المرأة ، فتبدد كل ما فى نفسه باشعة بسمه من وجهها . .

ونظر اليها بعينين نضاختين بجوار من السرور والفرح ، ثم مال عليها وقبلها ،
فاجابته بالمثل وطوقته بذراعيها ، وأخذت رأسه على صدرها ، واستكان لها تفعل
ما يروق لها ، فغربت فيها من أذنه وهمست بمضغ كلمة مضطربة لم يفهمها الحاج عمر
بالضبط ، فنظر اليها نظرة المتسائل الجاهل مرماها . وقال :

— لم أفهمك يا عزيزتى . فاذا تبغين أن أعلمه ؟ . يلوح لى أنه أمر هام .
فغضبت فاطمة ضحكة خجل وسرور فى آن واحد ، وقد طمرت الحرة الى وجنتيها
واثنت الى الجهة الاخرى ، ولكنه جذب وجهها نحوه ، قالها ضاحكة فافتأل
خيراً ، ثم قالت له فرحة : — ألم تعلم أنى حامل يا عزيزى ! . نعم فى بطنى
جنين لست أدري نوعه فى عالم الأجنة . انى أعلم علم اليقين أنه مما يسرك هذا
الأمر ، ومما يزيد سيطرتك قوة وتأثيراً فى نفوس الأهلين .

وما أن سمع الحاج عمر كلامها حتى هجم عليها بسرور وأخذ يطارفها ووجنتيها
بالقبلات ثم بعدها قايلا وفداً أمسك بيديها ، ونظر الى بطنها باسماء نظرة ذات معنى ،

وصاح جذلا وحبورا ولكن فى طهجة الجبد :

— وهل تثقن يا عزيزتى أن هذا الجنين ابن زوجك أتاك به منه ؟

فامعنت المرأة ، وقلبت وجوه الفكر ، ثم قالت فى تأكيد شديد .

— لقد عاشرت زوجى مدة أربع سنوات لم ينسلنى فيها ولدا ، ومرت

على معاشرتلك لى مايقرب من الستة شهور شعرت بعدها بالذى يلعب فى احشائى

وهذا ما يؤكده لى بطبيعة الحال انه ابنك . انه ابنك فى نظر الشريعة الوضعية

الساهرة ، وابن زوجى فى نظر الهيئة الاجتماعية ، والاكن فانا حائرة ماذا

أصنع ؟ . فابتسم الرجل وضمها الى صدره يطيب خاطرها ، وهش لها يداعبها

وقال : — ليكن ابن زوجك يا عزيزتى . ولندع الهيئة الاجتماعية تتغلب فى حكمها

ظاهريا على القوانين الوضعية . فابتسمت المرأة ، وسرت لثاقب رأيها وصاحت :

— حقا إن زوجى كان يتطاول طمعا فى الحصول على طفل ولكن الطبيعة عاكسة

وبددت أمنيته ، إذ هو عاقر لا يصلح للنسل ، دون أن يعلم الحقيقة المؤلمة ،

وتصور يا عزيزى حاله عندما أخبرته بأنى حامل : لقد كاد يطير فرحا وسرورا

واغتبط لذلك النبأ السار ، فراح من وقته يلاطفنى ويدلانى ، ويحضر الى كل

ما أحتاج . وصار يغمرنى بحبانه الشديد ، وعطفه المتين لما علم ماله من النسل فى بطني

تصور ذلك المسكين يا عزيزى عندما يأتى الى ويقبلنى ويوصينى الاعتناء

بنفسى ورعاية صحتى من أجل حملى ، حتى يحين أو ان الوضع فيرى ابنه ، فتزل منى تلك

الأفكار نزول الصاعقة ، فقبلها الحاج عمر يرفه عنها ، ويبعد عنها ما جاش

بخطرها ، ثم قال : — ليكن ابنه يا حبيبتي ، فدعيه يتأكد من أبوته له ، ولتسجل

الأوراق باسمه ، فهو كف لرعايته . أما أنت فأرجو أن ترعيننى برعايتك ، وتقبلين

على أنا الذى أنسلتك الطفل ، وبذلت جهدى فى احضاره . .

فابتسمت له وقد خجلت لدى كلامه ، ولكنها قالت برباطة جأش :

— أنا لك يا عزيزى . . أنت زوجى الثانى بعد زوجى الأول . هو زوجى

فى نظر القوانين والشريعة وأنت بعلى الحقيقى الذى أحبه وأعبد . . بعلى فى نظر

الفطرة الأولى وحياة الطبيعة الجميلة . .

وما أتمت كلامها حتى هجم عليها يقبلها فى كل موضع يقع عليه فمه ، وقد

سلب عقله بجهالها ، فلم يمد يد شيطان في هذا العالم ، فترك عنان أموره لغاربه ولم يمد يفكر في شيء سواها . وفي تلك اللحظة سمع أصوات أبواب منزله ، فأسرع وأمسك عنها واقتادها إلى حجرة دخليه هادئة . وخرج يستطلع الأمر ويستجلى سر ذلك الذي قطع عليه عذب ملذاته ، فرآهم قوما متشجعين بالسواد باكين ، فاستنطقهم أمرهم فاجابوه أنهم يعتقدون أنه رجل مقرب من ذات الله ، ويرجونه في كشف القناع عن قاتل المرأتين .

وارتعب الحاج عمر لدى سماعه قواهم ، غير أنه تمالك وباطلة جاشه ، وثبت قلبه بين أضلاعه ، وأوعدهم خيرا ، وبذل كل ما في جيبه في أقصائهم عن البيت ، ودخل بعد سيرهم مشقت الفكر مضطرب الأوصال .

وأخذ يضرب في فيافي الأفكار ، ويتقلب في بحار مضارب الظنون والآلام ولم يبعده عن أمره سوى فاطمة وهي تناديه بصوت خافت ، فتذكرها وسرعان ما خرج عن همومه الطارئة ، ومال إليها يائس تغرها الشهي . ياتلك الداهية الحاج عمر الشيطان الخبيث الذي أوقع امرأة كانت ظاهرة في جمائله . . أملى عليه زعيمه ملك الأبالسة أوامره ، فاخذ ينفذها بخطوة محكمة لاقت نجاحا وأيتا نجاح ، وأخذ يغور بالجمهور الجاهل الساذج المسكين ، وهو في خفي من أمره ، ولا يعلم بباطنه وغامضه غير الله . لقد أدخل في روع الأهلين أنه را حل إلى سنود لا تقوما من أعيان بهادعوه لزيارتهم ، ولكن أكبر به من ادعاء كاذب لا وجه له من الحقيقة بمكان . لقد سافر ولكنه لم يمسك هناك سوى يوما فاضد في البحث عن قومه يمكن أن يمتوا له بصلة قرابة أو نسب ، إلا أنه رجع بخفي حنين ، اذ لم يقف لهم على أثر ، فرجع والهم بقيقه ويقعده والآلم يمزق قواذه . ودخل البلدة في جنح الليل إلى منزله ، وادعى أنه مكث تلك المدة سفرا . وفي صباح اليوم التالي استيقظ مبكرا ، ووافته المرأة إلى مقره ، وبعد فضع الاحتضان أو عز إليها أن تأتيه من الأناء ماء من الصنبور الذي يقع خلف المنزل فاطاعت صاغرة .

وما كادت تصل إلى المكان حتى عكرت خياشيمها رائحة قوية انقضت عليها مضجع أنفها ، فاستنشقت ريحها رائحة مملوءة نكتنا أو ما شربا ، وحاولت التغلب على

حاستها غير ان ذلك لم يكن في مقدورها ، فألقت الالاء أرضا ، وأسرعت الى الحاج
عمر تطاعه على ما وقفت ، فسار معها الى البئر ونظر فيه ، وأمعن التأمل جهده ،
فميز جثة عاتمة على وجه الماء ، فاشمأز لهول مارأى ، وصاح رعباً بصوت أبج مخنوق :
— يا لله . . هذى جثة . من أين أتت الى فناء بيتي ؟ . . ومن قتها يا ترى ؟ . .

وأسرع في الحال الى دار الشرطة ، وقابل الضابط ، وعرف هذا من هو ، وكان
يقول له في رعب واضح : — انها جريمة هائلة ياسيدى الضابط . ولست أدري
من ألقاها في داري . فنظر اليه الضابط نظره قريب جاشت في نفسه ، وطرأ عليه
خاطر طريف فقال : — ألا تعلم من هو المجرم يا حاج عمر ؟
— كلا ياسيدى . ان هذه من مهمة الشرطة والعسس قط .

وسار الضابط مستعجبا الطبيب الشرعى والجندى المختص مع الرجل
حيث يتخذون الاجراءات اللازمة في مثل هذه الاحوال وهم يتمجبون أيعا
عجب لتلك الجرائم الغامضة التى تقع في البليدة الهادئة أخيرا .

الفصل الحادى عشر — الحبيبان

فتاة في ريعان الصبا وأضرة الشباب ، ذات خد أثيل ، طريفة الانف ،
مرججة الحاجبين ، واسعة العينين ، جراء الشفتين ، طويلة الرقبة ، غليظة
العنق ، عريضة الصدر ، بارزة النهد ، ممشوقة القد ، معتدلة القوام ، في خصر
نحيل ، وأرداف متزنة ، ناضجة كاملة ، وقد زين رأسها شعر حالك السواد ،
أسدلته على كتفها في جديلتين طويلتين باغتا منتصف أفقارها ، ذات ساقان
خدجتان ، وساعدان أملسان ، سطعت في سماء السنبلاوين فاحدثت ضجة بين
شبانها . وراح كل يخطب ودها في غير أمل ، وهي في غيب عن أحوالهم
تبلغ قمة الربيع السابع عشر من سني حياتها ، ونشأت نشأة من مجهول
ابويه في مقولته ، وذويه في الشباب . وكانت تود ان تعلم عنهما الشئ الكثير
ولكن خالتها انكرت امرها واخبرتها انهما ماتا ابان طفولتها في حادث حريق
لم ينبج منه سواها ، فاعرورقت عيناها بالدموع وودت لو لاقت حتفها معهما
حتى لا تعيش وحيدة في هذا العالم المضطرب . وكثيراً ما شدت على خالتها
وخالتها تشدد عليها التكبر في الأمر ، فلا تخرج من حديثها الا ولائدة حتفها

من الاصرار . كانت تسمى زبيدة ، ولا تدري أنه حقيقة اسمها الذي اخلقه عليها والداها ، أم مجرد منادى الصقة بها أولئك القوم الذي تعيش في كنفهم يحترمونها ويحلوها ويسرون عنهارغبة في ائمال ابويها ، ولكن مازادها ذلك الا اشتغال عاطفتها ، وايقاظ حاسة الحنان على فقيدتها تبغى من الوقوف على امرها الشيء الكثير .

سارت في طريقها وقد طرحت تلك الامور في تلكم اللحظات ، غير مبالية بنفسها من تكون ، ولا بدع فان افكارها كانت مشتتة الا وصال مضطربة البناء ، وقد بدا في خطواتها شبه لغز ، فامتلكت رباطة جأشها بعنف ، وبعد عشيبة كانت خارج البلدة تقصد خميلة منعزلة قليلة المطرق ، تصالح حصنا للعشاق يتبادلون فيها احاديث الصباية والهوى ، ويتناجون داخلها بوحى الحب والهرام . ولم يسقطها في شباك غرامه من كل شبان البلدة سوى فتى واحد ، تحلى بصنات جعلته يمتاز عن رصفائه بمراحل ، فقد كان حلوا الشائل ، حسن الخلق والخلقة ، جذاب الحديث ، تتخلله الفكاهات العذبة ، والنكات المسلية ، يقمن الكتابة في خاصة أحد الأمراء .

وانتظرت قليلا في الخيلة ، فابث أن وافاها حبيبها (حمدي) وهو يلثم والعرق يتصبب من جبينه دفاقا ، ولما رآها ابتسم لها بسمة حلوة ، وتقدم منها ماددا يده اليها ، فغضت طرفها خجلة ، وصاح لها في بهجة :

— لقد كنت مع بعض أصدقائي يا عزيزتي ، ولم أخلص منهم الا بشق النسي بعد أن مر جزء من الميعاد . فرفعت اليه بصرها ، ثم رنت اليه طويلا وتلكتها السرور فما لبثت أن قالت : — لله درك أيها الجبيب ! . ما أطيب نفسك ! وما أحسن صفاتك التي جعلتني أغرق في سبيل من السرور . — وضحك الشاب ضحكة قصيرة وأمعن قليلا ، ثم قال مرحا : — ساخطبك اليوم أو غدا من ذوبك يا عزيزتي وسأكون أسعد شبان العالم إذ ذاك . وحينئذ أكتب زبيدة قليلا ، وحولت وجهها كأنها تبحث عن أطراف الحديث ، ثم قالت مترددة :

— قد لا تود البناء بي يا عزيزي . لأنني مجهولة الوالدين ، ولا أحد لي في هذا العالم سوى ذلك القوم الذي يزعم أنه أهل لي ، ولا أشعر نحوهم إلا بباطلة

العرفان بالمنيع فحسب . فضحك الشاب مرة أخرى ضحكة قصيرة ، وهز كنفه قائلاً : - وماذا بهم والديك ؟ . . . انى أريد زواجك انت ولست اطلب ابويك ومهما كان بك فلست ابال بما يكون . إن الحب أهمى لا يرتبط بشروط ، وحبى لك واضح جلى مبني على أساس نفسيينا .

وحانت منه التفتاة نحو شخص فشاهد عصفورا ينادي البقة بألحان الغرام فابتسم وقال لها : - انظري إلى هذين ! . هل يسأل أحدهما عن ذوى الآخر كلا كلا إنها سعيدان يعيشان في هناء ومحبة ، لا يعرفان قوانين سجنه كتمك التى يستند اليها الناس ، ويتخذونها سباهم التى يسرون عليها في الحياة . . . ولكن ما أدناها قوانين وما أقدرها قيود . إن حياة الطبيعة والأجيال الأولى العتيقة الماضية هى أحب الى من تلك المدنية المزوقة المزيفة التى تربط الانسان بقيود وثيقة . قال ذلك ونظر اليها نظرة خاصة هادئة ، وتناولها بين أحضانها وكاد يعيل على فيها مقبلاً ، غير أنه عدل عن ذلك ، ثم دفعها عنه برقة ، ودهشت الفتاة لأمره ولكنه أسرع قائلاً : - لا أقبل يا عزيزتى أن يتداخل بيننا الشيطان المعين . أريدك زوجة طاهرة نقية لم يتدنس فك قط بقبولات الشباب الطائش لذلك لا أقبل أن أفعل معك هذا الطيش . ولكن ساحة الزوجية أوسع لنا لتأدية مثل تلك الأمور منها في هذه الظروف . ولتتهديك عناية الله .

فسرت زبيدة لقول حدى وتأكدت من إخلاصه وحبه الشديد لها ، وقالت له جدلة : - يالك من شهم يا حبيبي ! ليت كل شباب مصر يتخذونك مثلاً لم يقتدون بك ، ويسمعون منك نموذجاً يقتفون طريقته منه ، ليت كل الفتيان على شاكتك فيصعد بهم الوطن الى الذروة القصوى من النجاح باركك الله بالمثل ، ولتخطيني الليلة أو غدا وسأطلعهم على محبتى لك ومكانتك في قلبى . ولم يتمالك الا وتناولها بين ذراعيه ، وقبلها على جبينها قبلة قوية تفيض حناناً وحباً وإخلاصاً ، وأجابته هى بدورها فطبعته على جبينه قبلة تحوى مثل ما تضمنته قبلته ، وخرج الاثنان من الخيمة تفرغ عليهما كاليل السعادة وباقات الحب والغرام : واقتربا عند مدخل البلدة على أمل أن يحضر فى مساء الغد ليطلب يدها من خالتها وزوجها . . .

توجهت زبيدة الى المرأة التي تسميها خالتها ، وأطلعتها على كل ما في الأمر ففرحت كثيرا ، وسرت جدا . وكيف لا وابنة اختها سيعقد لها على شاب ذي مركز حسن يتناول مرتبا عاليا ، وازداد اطمئنانها حين أطلعتها على عفته ، وبسط لها أخلاقه على مائدة الحديث الذي خرج طرف منه من فم الفتاة يتقطر عذوبة وحلاوة . اعترت المرأة والفتاة بوادئ السرور والفرح ، فالبشت الأولى أن قالت لزبيدة : — هيا بنا الآن الى الحاج عمر ليباركك ويطلعك على ما سيحدث لك من الأمور مع هذا الشاب . فعافت الفتاة هذا الطلب ، وبدأت في ضيق بين ، وقالت في غضاظة واشمئزاز : — لست أحب هذه المظاهر يا خالي جدير بي ان اترك حبل الأمور تسير كما يريد الله لها . ولكن المرأة اصررت على الفتاة ، والمرأة التي تسقط تصبح ضعيفة ، وعقل الضالة يزين للفتاة الحمر ماء ، فما لبثت ان نزلت عند مطلبها ، وقصدتا الرجل في الحال ، واستبقتهما المرأة في الدخول فما شاهدهما حتى صاح في سرور — آه .. فاطمة ! ما احسن الصدف لقد .. فاشارت له اشارة خفية سريعة ذات معنى جعلته لا يتم حديثه ، فعرف انها مصحوبة بمن تخشى منها اذا وقعت على طرف من اسرارها ونقدت المرأة منه تجذب زبيدة الطحولة بعنف ، وقالت : — هذه ابنة اختي يا حاج عمر . ارجو أن تكشف لنا عن مستقبلها بخصوص فتاها الذي تحبه .. وأمعن الرجل في الفتاة ، فكأن قلبه يطير من بين أضالعه ، لولا استعادة رباطة جأشه ، وابتم لها ابتسامة خاصة وقال بشروء : — على بركة الله . أيتها الجارية ، أرى مستقبلا باهرا محوطا بمعامل الحب والهوى . حمامتين تبنيان عدهما في الفة ووداد ، يتساجيان الاثنا حديث البهيجة . مأوى جميل ما كنت تحامين بالحصول على مثله ولا تحمل بذلك جل فتيات الامة . أثاث فاخر يضم بينه ثمرات الحب والغرام ففطر الخمر على وجنتي الفتاة ، وابتسمت المرأة سرورا ، وقد نلت ان حفظ ابنة اختها غاية في الحسن ، ونظرت اليها نظرة ذات معنى وسمعت الرجل يستطرد قائلا : — وأرجو أن تخضري في ثروب البغد (منفردة) حتى أباركك وأمنع عنك شر حسد النساء . وخرجتا من لدنه والفتاة قلقة غير مرتاحة الى كلامه وميماده ، وفاطمة تمدح لها قوة معرفة الرجل

الفصل الثاني عشر — قصتان قديمتان

لنرجع بالقارئ الكريم الى ذلك العهد القديم الذى افتحنا به هذه الرواية فى تلك اللحظة المريعة التى حدثت فيها الفاجعة المحزنة التى ارتكبها (تياحى) ذلك الشاب الشرير ، ولنتم الحديث عنه منذ التى بنفسه فى نهر النيل بتلك القفزة التى ارتنح لها مطارديه :

غاص فى الماء الى عمق بعيد ، وأخذ يسبح بقوة هائلة ورأى أن التيار يحركه بعيدا فى سبيل النهر ، فترك له نفسه ترفعه لجة وتخطفه أخرى ، ودب التعب الى جسمه ، وكاد يفقد قوته التى لم تبق له المقاومة منها الا مالا يسمن ولا يغنى من جوع ، وتذكر الموت ، وما أروعه لديه من أمر ، فجمع ما تبقى من عزيمة وطاب الشاطئ الآخر ، وساعده الامواج فى الخروج من النهر بل ساعده الشيطان يريد ارساله الى عالم الشر عوناً من أعوانه الا ان يشون الاجتاد والفساد فى الصدور . وخرج من الماء وقد لاقى الأمرين ، يكاد يسقط خورا ، ونظر الى الوراء نظرة أخيرة ، فلم ير سمود ولا مايدل على وجودها ، فتأكد انه أصبح فى دائرة أخرى ، وقد اطمان قليلا لذلك ، وما كاد يسير قليلا تاركا النهر خلفه حتى سقط فى انحاء عميق .

ورجع اليه شعوره فى الصباح ، فقام وقد استرد قواه ، وصار كن ام يصادف شيئا فى سبيله ، وشعر بالجوع يهدد امعاءه ، فسار الى حقل مجاور وتناول من خضرواته ما سد به رمقه قليلا ، ثم اتخذ الاسراع ديدنه حتى لا يخبروا به اذا حدثتهم النسم بمطارده .

ودب اليه التعب ، فأخذ يسير الهوينى يخرج من حقل الى طريق ومن يركب الى خدير ، حتى وصل الى ظاهر السبلاوين مع غروب الشمس ، وقد تغير شكله واستنكر حاله وتلدخت ملبسه بالاولحال والاقذار وتمزقت منها بضعة أجزاء من فرط اجهاد نفسه فى القرار . وأتى الى شجرة وارفة الظلال ، يبغى طلب الراحة ريثما يتخلى الله أمراً كان مقبولا . وأسند ظهره الى الجذع وغفت عيناه قليلا ، ولم ينتبه الا على صوت سعال طارق أذنه من جهة قريبة ، وكان الطريق خاليا ما به من طارق ، فأجهد نفسه لوزحف متهاكاً جهة الصوت

ليلمس من صاحبه شيئاً يتبلغ به . ودنا من رجل كان يقيم فرض ربه في مصلى متواضع على شاطئ غدير ذي ماء جار ، وانتظار حتى اسلم الرجل صلاته ، وصاح بصوت ضعيف لثت أنظار المتعبد اليه :

— الأمان حسنة لله أتبلغ بها ! . . . لقد مرزمت أطويلاً لم أذق فيه طعم إلا كل . ونظر نحو الرجل ، فرآه شيخاً متقدماً العمر ، ذو لحية بيضاء ، تلوح عليه علامات الزهد والتقوى والتفاني في عبادة الله ، لا يفتأ يكرر كلمات التوحيد على حبات سبخته ، ونظر هذا بدوره الى تهاى ، فبرز عليه آثار البؤس والشقاء وهناك كثير من البؤساء يطوون بين جوانحهم اسراراً لو علم بها فرد من الهيئة الاجتماعية لبدد من صدره عواطف الشفقة وعمل على ابادتهم من هذا العالم ، وطرقت صدر الشيخ عوامل الاشفاق ، وما كاد يخرج من المصلى حتى ارتقى تهاى تحت قدميه ، وصاح في تذلل : — سيدى . اتخذنى خادماً لك . لا أبغى سوى قطعة خبز . اتبلغ بها حتى أرد عنى غائلة الجوع . فانحنى عليه الرجل ، وداعب شعره بدافع الشفقة والحنان ثم ساعده على النهوض بعد كل عنف ، وأمن فيه النظر ، وقال له بصوت لين : — أطلعنى أمرك أيها الشاب . لقد مزقت فؤادى بشكك البائس هذا ، حتى لان حالك التى طبعتم فى ذاكرتى قد تقض على مضجعى فلا أجسد الى النوم سبيلاً .

" وترددت تهاى فى الامر ، ولكنه تلمس الشفقة فى صدر الشيخ بحسبه ، وعلم أنه رجل لا يخشى منه ذمرا ، فقال فى صوت متقطع امتد اليه عبث التائر :

— آلى من أولئك الذين غرهم الشيطان . . . نعم ، ولكن توبى على يدك بعد فماتى المنكرة . وقاب الشيخ الأمور على ثلاثها . فأنذبه باين نحو البلدة قائلاً : — مادمت قد تبنت على ماضيك أهامى ، فتمال منى وكفر عن أخطائك . وابدل اسمك اذا شئت . فبعت على وجه تهاى علامة السرور ، وهال على يد الشيخ (ابراهيم) . ومنذ ذاك الحين أطلق على نفسه عمر . * *

صار التفتاة التى اتهمك تهاى عفاها فى حالة يرثى لها من الألم وتذيب النفس واتهمها الحزن ، تستلمت أثر ذلك فى مرض شديد ، وأصبحت ذاوية كسيطة البال خجولة ، رغم أن عفاها قد فقد دون ارادتها وبعد أن قاومت مقاومة

شديدة ، وأتت إليها أمها ذات يوم ، وجست نبضها فوجدته غاية في الضعف ، وقد أشرفت على الهلاك ونظرت الفتاة الى أمها نظرة اليأس من الحياة ، وقالت بصوت خافت : - أماه . انى أشعر بدنو أجلى . . أشعر بشبح الموت يقترب منى فظفرت الدموع من مقلتي أمها ، واجهشت فى بكاء عميق ، وعانقتها قائلة : - كلا . . كلا لا تذكرى ذلك يا بنتى ، انى اضحى بنفسى كى يمد الله فى أجالك واخفت الفتاة وجهها فى الفراش بضعف ، ثم اقتربت نحو أمها ، وبكت بكاء عميقا ، واخذت تنسج نسيجا عاليا وامسكت عن ذلك هنيئة ، وصاحت تهمس لأمها : - أماه . . انى اشعر بشيء يلعب فى احشائى . . ماهذا ؟ . ماهذا ؟ ففحصت الأم ابنتها ، وهنأتها لها الحقيقة المرة واضحة . وازداد بكاءها وجمدت عينها فى محجريها ، وقالت للفتاة بكلمات متدائرة اجهدت نفسها فى لفظها - بنتى . . انك حامل . . نعم حامل بجنين من ذلك الشرير . ازهدى الله روحه . يجب اذن ان نعد عدتنا ونسوى الأمر حتى يتم الاجهاض بسهولة فما ان سمعت الفتاة قول أمها حتى صرخت صرخة راثعة مزقت احشاء السكون السائد على ارجاء البيت ، وسقطت للحال فى اغماء عميق . وهلعت الأم فى تلك اللحظة ، وتمثل لها هاتك عرض ابنتها فودت لو تراه الا أن لتنزع منه روحه جزاء اعتدائه على بريئة مسكينة دون ذنب جنت . ونظرت الى ابنتها فى اغماها ، فاهتمت برباطة جأشها ، ونامت ان حالة الفتاة عصبية ، فأخذت تقدم لها يد المساعدة جهد ماملكت ، وصارت تجرى لها الاسعافات اللازمة بعناية وانشاط حتى رجعت اليها حالها المعتادة . ونظرت الأم الى ابنتها نظرة عطف واشفاق ، واخذت بيدها على جبينها ، وقالت لها مرفقة :

- ان مرضك يا عزيزتى ناشئ عن حملك ، فلا تخشى على نفسك سو غدا سأسافر بك الى السنبلالوين عند أختك (منيرة) وهناك تضعين حملك فى سلام ، وستقوم أختك بمساعدتك بمعاونة صغرا كما فاطمة ، وحذار من مد الضرر الى الجنين خشية حصول مالا يحمد عقباه لك . وهكذا ففنى الصباح سافرت المرأة تصحب ابنتها الى السنبلالوين ، وهناك مكنت بقيمة أيام حملها دون ان ترى عرض الطريق ، وجاءها المخاض اخيرا

ووضعت روحها لترهق روحها . . . اذ اسامت الروح ثالث ولادتها متأثرة بحمي
النفاس التي هاجت جسمها ، وبعد ان مرت ايام الحداد رجعت الأم الى
معمود ، وعهدت بالطفلة المولودة الى منيرة ابنتها الأخرى المتروجة ، وكانت
فاطمة تعهد الطفلة برعايتها وتسهر عليها سهر الأم على ولدها ، ولا تروفاً لها شمرت
بمطافة اشفاق غريبة نحوها ، فأحببتها حباً جما . . . وهي التي دعيتها (زبيدة) . . .
وسبت فاطمه وعرفت قصة أختها المؤلمة ، وسافرت منيرة الى الوجه القبلي
مع زوجها تبعاً لأشغاله الميشية ، واستقرت فاطمة في البلدة ، وبانت السادسة
والعشرين ولما تزوج بعد . . . وقد بقيت زبيدة في حوزتها ، وقد أحببتها هذه
بدوها وجمالها كأنهم لها . . . وتزوجت فاطمة من رجل ذي قلب طيب ، فغمر
عقله على الفتاة التي ترعرعت الآن وأصبحت في سن يسمح لها بالسكون الى رجل
الفصل الثالث عشر — المعجزة المنتظرة

كان للحوادث الأخيرة التي حصلت في البلدة ضجة هائلة لم تواجه مثلها في
مختلف أدوار تاريخ حياتها الحافل بالهدوء والسكينة واستتاب الأمن ، فراح
كل فرد يظهر امتيائه ضد ذلك المجرم الكبير الذي قيدت الجرائم كلها وحفظت
باسمه (مجهول) ، وحمل كل الاهل حملة واحدة عنيفة على ذلك الشرير ، واتفقوا
على انتخاب رجال اشداء مشهورين بالمكر والدهاء وايوقعوه في شراكهم
ومن جراء تلك الحوادث التي شغلت كل الرأي العام في البلدة ، وفي سائر أرجاء
المقاطعة بل وفي بعض مدن مختلفة أخرى من القطر المصري حيث يقطن أقارب
القتيلات ، تحول اهتمام الناس عن الحاج عمر ليتفرغوا لاسقاط ذلك المجرم
المروع حتى يقتصر منه كل ذي حق بدوره . وفي خلال ذلك حدثت ظاهرة
كان سببها الحاج عمر ، واعتبرها جل الأهالي معجزة لارجل تدل من جديد
على قدرته الخارقة التي توهمها الجهلاء أثر حاد وليد الوهم والخيال ، كان
في مكانة كل من له المام بأسرار علم الفلك أن يأتيها . . . وتلك الظاهرة الجديدة
هي حمل المرأة فاطمة التي مكثت مع زوجها أربع سنين كناناً في خلاطها عاقرين
حتى أتى الرجل فذل لها عقبه النسل بقوة السرية القريبة من الله سبحانه وتعالى
مما حول اليه أنظار الأهالي شيئاً ما . وكانت هنالك حلقة خفية من سلسلة

أعمال الحاج عمر لا يعرفها أقرب شخص إليه بل ربما نسيها نفسه بعد فعلها ، فقد كانت النساء تتناول أحاديثهن أعمال الرجل الخارقة في مجالس سمرهن ، فذاع صيت الرجل بين الجنس الطليف : وهن بطبيعتهن جنس ضعيف يركن الانسان الى مواطن الضعف فيهن ، فيفوز منهن بما ينبغي . فكانت كل معتزم في نفسها الذهاب إلى الحاج عمر دون أن تطلع زميلاتهما ، وفي الواقع كانت كل امرأة تسمع عنه بمثل تلك الأقاصيص نزال تحدث نفسها بالذهاب بمفردها حتى يكشف لها عن سر موقعة من مخاتف دواعيها ، أو أقصرصة سخيذها مما اشتهر حين أو استشارة عن أمر ذلك المفريت (الحبشي) أو (المغربي) أو من أي جنس آخر ليس جسمها ، وكيف السبيل الى طرده عنها . . الى غير ذلك .

وأخذ يحكم شباكه حول كل من تقصده منهن ، فإذا آتت ضعفا في إحداهن بث حولها أساليب دهائه ويتربص لها إن تجز مرة بكلام يطمئن به في الصميم حتى تسلم له قيادتها وتطيهه صاغرة ، تلبي كل ما يطلبه منها ، من مال وطعام وشراب ، وارتشاف الهوى بين الأحمضان والنهود يحيي أوقاته في سرور ، وحبور . كل ذلك بمعزل عن أعين الرقباء . ولكن عين الله لا تغفل ،

وإذا ما آتت في امرأة أنها ساءت أفعاليه ، وتكشف بمعاشر تواضع ضالاه يعمد لها بحديث يجذب أشراقها ، ثم يفوز منها بموعده خاص في الليل ، وفي الظلام توافيه إلى مقده ، وما تسكاد تنقف أمامه في غرامه حتى يتذكر الشر الذي يهددها ، فينظر اليها نظرة ذات معنى ، ثم يطيب خاطرها بطمئنها ، وبعد ذلك يضرع النار في الموقد ، ويضع فيها شيئاً خاصاً ما تسكاد تشمه حتى تفتيب عن صوابها ، ثم يتركها قابلاً حتى يستولي الخول على أعصابها ويرجع اليها وقد ركب ابليس عقلاه يخبذه في تلك اللعبة التي لا تلب فيها ولا تنب :

بناهة شديدة من رمح قصير ذي طرف مثلث في صدرها تحرق في مكانها دون حرارك ، ودون أن تنبث يانت شفة ، ويأتي اليها فيجدها قد أسامت روحها الى خالقها بريئة تشكر ظلم الانسان ، حينئذ يطمئن على نفسه من غائلة الاعتماد ، وينزع الرمح من مكانه ، ولا يجعل الدم ينزف كثيراً احتياطاً الامر وينزع عنها ملابسها حتى تصير عارية ، ثم ينفذ على رأسها يجمع مرآة بمنظاره

فرحاً مسروراً لما أتاه ، ويضحك ضحكة جنونية ، ويربت الجثة على صدرها
وفي برهة وجيزة يضعها في سلة متوسطة الحجم ويحملها بقوته المتينة ، وفي الهزيع
الأخير من الليل حين تكسو الحسكة برداً لها البلدة ودورها ، يخرج من منزله
متلصصاً وفي يده دعول صغير ، ويسير في طرقات هادئة ، خالية من الحرس . وفي
البقعة التي يقع اختياره عليها ينزل السلة ، وفي نوان معدودات يكون قد حفر القبر
ويأتي مامعه ، ويهيل على الجثة الرماد ، ثم يرجع بعد ذلك إلى منزله ، ويعيد كل شيء
إلى ما كان عليه ، ويتوجه بعد ذلك إلى فراشه ويندس بين الأغطية كحال المعتاد
كأنه لم يفعل شيئاً رهيباً يحاسب عليه حساباً عسيراً . هذه هي طريقة ذلك
المرعب في سنك دماء ضحايا البريئة دون شفقة أو حنان ، حتى ضجت البلدة
بموبقاته ، ونارت كلها ثورة رجل واحد يطالبون رأسه لينزخرفوا به مكان
مرتفع في سوق البلدة حتى يكون عبرة لأمثاله . وعلى ذلك أمعن في أمره جداً ،
وعرف أنه قد أصبح على شفا أحد أمرين : إما الهلاك وهذا أقل ما ينتظره .
والقرار وهذا أهم ما يجب الركون إليه دون أن تأخذه في ترك البلدة لومة لائم .
ورأى بشاق فكره أن يحول آراء القوم إلى جهة أخرى حتى يستتب حاله
قليلاً ، أو حتى تسنح له الفرصة في جمع ما قد يكفيه بقية حياته في فراره ، وفكر
أن قوات القوم المؤتلفة ودهاء العسس السري الذي انتشر وأخذ يترصد كل
صغيرة وكبيرة في البلدة ، وتلك الأبحاث الجبارة ، قد توقع به رشماً من احتياطاته
بل لا بد أنها موقعة به يوماً ما ، فعول على أن يعتمد على سخافة من سخافته ببرقشها
للقوم بأسلوب دهاء ومكر حتى تدخل في عقوبات الجاهلة الألى هي أشبه في
فراغها من فؤاد أم موسى ، وطرائق عليه حيلة اقتنع لدى التفكير فيها أنها
فوية لأداء أغراضه . وعلى ذلك خرج قبيل عصر اليوم التالي ليحيى زبيدة إليه
وسار في الشوارع بلاوش ، وهو يرتي دليلاً الأسى ، الجسدي سرعاناً في فرط
حبوب (سبحته) فكانت المرة السابقة في ادلائه بأمر القوس نرح ، ولانت
حاله أنظار الناس ، فساروا خلفه ، وهم يتعجبون من مقدرته الخارقة ، متأكدين
الآن أنه سيدلي إليهم بأمرهم ، أو ذاهب في مهمة تقتقر إلى دراية الزهد والتشف .
وقادهم إلى ذلك المكان الذي قابل فيه الشيخ إبراهيم قديماً ، والذي اتى

فيه ما أسمعوه نبوءة (قوس المطار) حديثاً . وتقدم من المصلى وأقام فريضة العصر بصوت جهوري ، وأسلم صلاته ، ثم نهض خارجاً ، وما كاد يسير بضعة أقدام حتى وقف في مكانه فجأة ، وتقاضت عضلات وجهه ، وأصبح في حال نكرة لم يروها من قبل ، فارتعبوا بأكمامهم وساد عليهم الدعر والهول .

وخر ساجداً في مكانه فترة قصيرة ، ثم نهض وأخذ يمعن فيما وراء السحاب فانتفض انتفاضة رعب نالت من القوم مثل ما نالت منه ، وحول اليهم نظره ، وفرس فيهم ، ثم أشار بيد مرتجفة يابسة قائلاً :

- أياقومي : لقد ما يؤسفني ويدخل الروح في نفسي تلك الحوادث المرعبة التي ظهرت أخيراً في بلدتنا التي كان يسودها الهدوء ، وتقوم فيها المحبة مقام القانون . واني لأنس ابداء سخطى على ذلك السفاك الذي لم يرع حرمة قوم ضعيف ، فوضع التنكيل بنسائه ديدنه ، وأراد سفك دمائين مبداه . واني لأرجو الرجاء كله أن أوفق قريباً الى معرفته حتى أقدمه لكم تصنعون به ماشئتم جزاء وثقا . وسر الناس جداً لقول الرجل لما يوافق نزعتهم ، ثم سمعوه يستطرد :

- واني يا قومي لأشمر أنكم ستظفرون به قريباً ، وأمل حينذاك ان تمثلوا به أشنع تمثيل كما مثل بنسائكم من قبل ، ولكن خذوا نصيحتي : ابحثوا عنه قبل اسبوعين والا فلن تصل اليه أيديكم لأن الطبيعة ستساعده على الفرار نعم ستساعده على الفرار ، ولكن الى الموت ، والسكل منا هكذا مصيره فالعالم سينفجر بعد تمام اسبوعين ولا يصبح هناك شيء اسمه (العالم) .

نعم سينفجر قطعا في القضاء الكوني . ومن لا يصدقني فليصبر وليروا السلام وانقض الناس وقدماء عليهم السكون ، وقاب كل منهم يدق دقا عنيقاً وتركوا بأجمعهم امر القاتل والقتيلات واخذوا يفكرون في هذا الامر :

الفصل الرابع عشر - كشف القناع

رجع الحاج عمر الى البيت وقد تأكد أنه تحس تلك النعمة التي كان يرجوها ، وانشأ من نافذة الغرفة الى بعض المارة فرآهم يهيمسون بمأدبى به ، والسكل في وجل من هذا القضاء العاجل ولذلك باتوا كلهم في رعب وفرع من هذا القضاء الطارى . وبينما هو يتجمل الطرف في عرض الشارع إذ

رأى زبيدة قادمة ، فأعد عدته لمقابلتها ، ثم ذهب وادخلها وابتمسم لها في سرور ، وقال لها في امتحان : - لقد حضرت . اذن أنت تثقين بي . خففت بصرها واطرقت تفكر ثم قالت في صوت منخفض اجلس : - اثق بك لما ارى بلدة بأكملها تضع املها فيك .

ونظر اليها الرجل فأخذه جهالها ، وود لو يمتع نفسه بارتشاف الهوى بين احضانها ، ولكنه أرجأ هذا التعايل حتى تحين الفرصة . ونظر نحوها فوجد لها تمن النظار فيه باستخفاف ، فقال لها :

- هاقد حانت الفرصة التي فيها أباركك . ستخرجين من ادنى في صحة وقوة تشكرين من جرائها الله الذي جعلني في طريقك . فقد جتته زبيدة بنظرة تتضمن كل معاني السخرية ، الا أنها أسرعت وأخفتها حتى لا تجرح شعور هذا الرجل الذي يود اسماعها كما أدخل في روعها . ورأته يشير لها بمتابعته فسارت خلفه ، وولج بها حججته الخاصة وهناك أضرم النار في الموقف ووضع في طيها قليلا من العقاقير القوية ، فتصاعدت سحائب بيضاء كثيفة ، وأمر الرجل زبيدة بالتقدم منها ، فما كادت تأخذ مكانها حتى خرجت الى عالم آخر هو عالم الخيال والاحلام المليء بالسعادة ، ثم مال رأسها وسقطت في شبه اغماء .

قصده حمدي ووالدته منزل زبيدة يبغيان خطبتها من زوج خالتها ، وقابلا فاطمة ، وسألها الشاب عن الفتاة ، فأخبرته أنها قصدت الحاج عمر ليكشف لها عن حافظ لها من شر حاسد اذا حسد . وقد أكتأب سريعا لطاريء في نفسه ، وأخذ يفكر ، وصار يضرب أخماسا لأسداس ، وأخيرا جمع شتات حواسه ، وقال للمرأة متسائلا : - هل ذهبت الى هنالك وحيدة أم معجوبة ؟ .

فاجابته في سرعة ولكن بهدوء واضح :

- انه اشترط ذهابها اليه منفردة ، ولقد وجدت غضاضة في ذلك ، فطلبت منه استصحابها اليه ولكنه رفض بشم وابعاء ، خشية نفور الوسطاء ، فنظر اليها حمدي شذرا وتناولته الهواجس ترمي به في لجج مضطربة لا يدرك كننها الا انه ألم بطرف منها . والتفت الى فاطمة وقال لها في نشاط : - سأذهب الى الحاج عمر لأخضر زبدة معي من لدنه . . اني ابني الأسراع في عقد الخطبة

قال هذا ولم ينتظر ادنى كلمة ، وانطلق خارجا . ووصل إلى مأوى الحاج عمر ، واقترب من الباب يريد طريقه غير أنه ميز السكون مخبئا على أرجاء البيت ، والنوافذ مغلقة ، فتوجس خيفة ودق قلبه بين أضالعه ، وأسرع واستدار خلف البيت ، وقفز على السور إلى الفناء بخفة ، ولم يشعر به أحد ، فظن البيت خاليا . وابتغى التلصص ليرى ما يكون من أمر ذلك الرجل في حياته الغامضة .

وتقدم من باب الفناء ، فرآه مغلقا غير أنه فك رتاجه ، ودخل متلصصا فوجد نفسه في البهو الخالي ، وأرهف سمعه فميز السكون كالقبور . ورأى نفسه بجانب حجرة لم يميز ماهيتها لشدة حلكة المكان ، وخشى أن ينير فيكتشفه الرجل . وتقدم إلى الامام ، وصار لا يعرف طريقه لحلكة الطريق ، وصادف في طريقه بابا ما كاد يلمسه حتى فتح ، ودخل الغرفة واجترأ فأثار مصباحا كهريا ثانياً معه ثم تعودت عيناه الضوء ، فرأى أناث الغرفة متفرقا ، ولقت نظره آثار دماء على خزانة ملابس قديمة ، فالتشعر جسمه . وفتح الخزانة تحت عامل الاستطلاع فتولاه الفرع لدى رؤيته ملابس نسائية عليها بقع دموية . وميز بين تلك الملابس ثياب زوجة أخيه ، فاستغرب الامر وبخافة مرت بخاطره ذكريات القتيلات . فتأكد الآن انه امام صرعب البلدة وسفما كهها ، فوضع الامتعة كما هي وخرج يقصد اول البيت ورأى في طريقه غرفة مضيئة فاقبل عليها ووقف يرهف سمعه خارجا ، ولكنه لم يميز شيئا .

ونظر في خصاص الباب فرأى زبيدة ملقاة على الارض في حالة اشتباه ، وما ان شاهدها كذلك حتى ولج الحجرة ، وكان ينتظر المقاومة من الرجل او الدفاع ، غير انه دهش عند ما تحقق عدم وجوده فأسرع الى الفتاة وحملها بين ذراعيه ، وخرج بها الى الفناء ، ووضعها بجانب السور حتى يجد وسيلة يخرج بها من حصن هذا السفاك .

وما كاد ينتصب في مكانه حتى سمع في الداخل أصواتا وضجة ، وميز صوتا سائيا ، والحاج عمر يهدر ويثور قائلا : - زبيدة . ابنتي . أين أنت يا زبيدة ؟ . يفتحجب حمدي من كلام الرجل ، ودهش لمناداته زبيدة بابنته ، ثم رأى نورا تتقدم ، فأسرع وأخباها في مكان أمين ، وخرج فجأة إلى الرجل ، ورأى

خلفه المرأة فاطمة . ودهش الحاج عمر لتلك المفاجأة ثم تماك روعه ، وصرخ فيه قائلاً : - أية ريح خبيثة حملت بك إلى هذا المكان ؟ .

فقال حمدي يضرب على الوتر الحساس : - ريح جراثمك ومو بقاتك الخبيثة هي التي جذبتني الى هنا . فامتقع الحاج عمر ، واحتدي بنفي قول الشاب ، غالطا ولكن هذا أسرع اليه ، وقال ووجهها يربد بعواطف المقت والانتقام :

- نعم سفكك دماء البرينات ظاننا وعدوانا هو الذي ساقني اليك لأضع حدا لشرورك . أدار بخلدك أن ثياب ضحياتك التي في خزانتك لن تشهد عليك ، ظننت أنك تنجو من طائلة العقاب ولكن عين الله لا تغفل . وحاول الحاج عمر أن يرتد على عقبيه ليأوذ بأذيال الفرار ، غير أن حمدي أسرع وامسك بتلابيبه ، ومنعه من ابداء أية مقاومة . وفي تلك الآونة تدخلت فاطمة في الأمر وقالت - انه والد زبيدة يا حمدي . نعم هو والدها . كان قد اعتمد على عفاف اختي في ممنود بظروف عجيبة اغرب من الخيال ، ثم ضرب في الفرار حتى هنا وماتت اختي بعد ان وضعها ، وقد اعلمته بسر مولدها ففرح قائلاً : انا ابوها يافاطمة . فانكريني منها لأنني لا استحق ان اكون ابالها ، والا كن يا حمدي بما أنك ستتزوج منها فأرجوا ان تمهد له سبيل الفرار حتى لا توهم زوجتك بالسوأي ، وما ان سمع حمدي كلامها حتى ترك الرجل من قبضته ، ووجد نفسه في موقف حرج ، بين ان يسامه الى الشرطة فيرضى ضميره ، وان يخلي سبيله فيرضى واجب الحب وامعن قليلا في الأمر ففضل الرأي الاخير فقال له :

- سر الي حيث تختفي عن الأنظار ولا تعد الى هنا بعد ، هيا يا حاج عمر . فبكى الرجل بلوعة ، ثم قال بصوت حزين : - ان اسمي تهاى وليس عمر .

الخاتمة

بات كل من الثلاثة مطرفا رأسه لذلك الموقف الرهيب ، وعقدت الستهم فلم يتكلم احد منهم واخيرا قطع حمدي حبل الصمت ، فقال في صوت الأمر - هيا واهرب ايها الرجل . ماذا تنتظر ؟

فرمقه الحاج عمر شذراً ، وارسل له نظرة مملوءة بالدموع ، ثم قال له بعزم . كلا . لست بذاهب اليوم ! اني كنت لا اقدم على ذلك في ظروف اخرى

ولكن الآن حين تبينت ان لي ابنة كلا ، ولو اطعتهك ياسيدي وركنت
بإذبال الفرار لعدت فقاطعته فاطمة مثالة : — ولكن تذكر يا عزيزي أن ذلك
مما يؤلمها . . فهي تود لو تعلم عن أبواها كثيرا ولكن لم تسمح بنفسى بله الواجب
أن أصرح لها بمثل تلك الأمور السيئة فأطرق الرجل منكرا فلما رأى انها
على صواب مالبت ان التفت الى حمدي وقال : — انت تحب زبيدة يا حمدي .
اليس كذلك ؟ — فقال الشاب — بكل ما في من عاطفة ياسيدي .

— اذن يكفي لحبها رجل واحد يحمىها ، وانا اتوسم فيك ذلك . . اما انا
فخدير ان اختفى الى الابد . . هيا بنا سويا لأمور يجب ان تكون فيها معي
قال هذا ثم التفت الى فاطمة قائلا : — واما انت فخذى زبيدة واذهي معها
إلى منزلك . وجذب يد حمدي وانطلقا يمدوان في الخارج . . ولم يحاول
الشاب ان يعترض ، بل ترك نفسه تنقاد له في شوارع البلدة حتي رآه قاصداً دار
الشرطة ، وواجه الضابط المختص قائلا : — لقد قبض على هذا الشاب بتهمة
ارتكاب جرائم قتل النساء . . ودهش الضابط لقول الرجل متفرسا فيه ، ثم
حول نظراته الى الشاب ، ولكن الحاج عمر صرخ فيه بشدة قائلا :

— هيا . . هيا واقبض على . . لقد سئمت الضلال فأريد الرحة .
وانتشر بين اهل البلدة نبأ القبض على الحاج عمر ، واسندت اليه تهمة كثيرة ،
قيل انه أتى من سخود بعد ارتكاب جريمتين منذ تسعة عشر عاما ، واسمه
هذا مستعار . . فانتقسم الناس فئتين : اولى تدافع عن الرجل واخرى تؤيد
ماذهب اليه اولى الأمر . . وأتى اليوم الذي عين فيه الحاج عمر هلاك الأرض
وظل القوم يتوقعون انفجارها غير ان شيئا من ذلك لم يقع ، فاحذوا يلعنون
الرجل لتدجيله عليهم ، ثم تركوا امره وذهبوا الى حمدي وزبيدة أينثوها
على الزفاف . . . اما الحاج عمر فانه قد اندم شنقا في المنصورة في اللحظة التي
كانت زبيدة ابنته ، تعانق حمدي ، والشاب يقبلها القبلة الأولى . .

تمت بحمد الله وحسن توفيقه